اللورد افبري

معنى الحياة



ماذا الذي يجب أن تفعله لتصل للنجاح والسعادة
ما الذي يجب أن تتجنبه لكي تصل لمبتغاك
حكمة لو اتبعتها تجنبك الخوف من الموت
كيف يشفي الوقت جراح الجسد والنفس
كيف تصل للثراء وتحافظ على أخلاقك
كيف تحضر جسدك لطول العمر

آفاق

ترجمة: وديع البستاني

اللورد أفبري

معنى الحياة



ماذا الذي يجب أن تفعله لتصل للنجاح والسعادة
ما الذي يجب أن تتجنبه لكي تصل لمبتغاك
حكمة لو اتبعتها تجنبك الخوف من الموت
كيف يشفي الوقت جراح الجسد والنفس
كيف تصل للثراء وتحافظ على أخلاقك
كيف تحضر جسدك لطول العمر



ترجمة: وديع البستاني

معنى الحياة

اللورد أفبري

◆ المؤلف: اللورد أفبري
◆ العنوان: معنى الحياة
◆ ترجمة: وديع البستاني
◆ طبعة آفاق الأولى 2022
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢١/ ٢٨٤٦١
الترقيم الدولي: ISBN
978-977-765-326-8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

اللورد أفبري

معنى الحياة

كتاب أخلاقي يبحث في شؤون الحياة اليومية

ترجمة

وديع البستاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

أفبري، اللورد.

اللورد أفبري : معنى الحياة

تعريب: وديع البستاني

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2022

160 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 28461 / 2021

الترقيم الدولي 8 – 326 – 765 – 977 – 978

1 – العنوان

2 – أفبري، اللورد

كلمة الإهداء[1]

1) هي نفس الكلمة المثبتة في الطبعة الأولى و«معنى الحياة» أول معربات المهدي.

إليك يا نسيبي الفاضل أهدي باكورة اجتهادي. وما قيمتها إلا في دلالتها على إجلالي لك وعلى حبي وإخلاصي النفسيين لا الدمويين فقط. فاقبلها، وابق مثالًا لي ولإخواني الشبان، نعتبره فنفهم معنى الحياة، أطال الله حياتك.

وديع البستاني

مقدمة الطبعة الأولى

أخي في الشباب:

يا أخي، أنت في ربيع الحياة
وقليل ما عشت من سنوات
عشت ما عشت والسلام على الـ
ـماضي وأهلًا بكل يوم آت
وحياة الإنسان تمضي سريعًا
كل عام منها عتيد الفوات
ليس يدري الإنسان في أي يوم
أو مكان يذوق كأس الممات
وتراني كما أراك محبًّا
صفو عيش يطول قبل الوفاة
فإذا رمت أن تعيش طويلًا
بل سعيدا فافهم معاني الحياة
والكتاب الذي لديك المعاني
قد جلاها فأصبحت واضحات
فهمتها نفسي جليًّا وقالت
لي «لماذا تخفى على إخواني؟
أنا نفس محبة كل نفس
كل حي حتى حقير النبات
فهو فرض عليك لا بد منه
واجب نقلها من الواجبات»
فسمعت الندا العميق بصدري
ووعدت الداعي بلا كلمات
كان وعدي فكرا فأصبح عزمًا

فاشتغالا فهذه الصفحات
وكذا أنت إن نويت فعزمًا
واجتهادًا تحقق النيات
يا أخي يا أخي إليك دعائي
أوليست أقلامنا ناطقات
فأجبني وإن قرأت كتابي
فجواب بساكن الأصوات

بيروت (الكلية) **وديع البستاني**

مقدمة الطبعة الثانية

الكتب أنواع، وأنفعها للبلاد الأخلاقية منها، لأن الأمة بأخلاقها، ولأن شاب اليوم رجل الغد. عرفت هذه الحقيقة فآليت أن أقصر خدمتي لبلادي على وضع «الكتب الأخلاقية» بين أيدي إخواني الشبان، راجيًا أن يعود إقبالهم عليها بالنفع العميم على ذواتهم أولًا وعلى البلاد بالتالي، لأن ترقية البلاد بترقية الأفراد.

ففي سنة 1909 عربت هذا الكتاب وطبعته في بيروت، ثم جئت مصر وعربت «السعادة والسلام» وطبعته في أواخر السنة الماضية، وكانت ثمرة هذا العام «مسرات الحياة» الذي صدر منذ بضعة أشهر.

والكتب الثلاثة لمؤلف واحد، هو اللورد أفبري، ذلك العالم الكبير، المعروف بفيلسوف الحياة اليومية. وهو اليوم شيخ جليل على أبواب الثمانين من سنيه، وأخاله أشهر من أن يعرف. وإنما أشرت إلى سنه إشارة لما يجب أن يكون لأقواله من الاعتبار في نفوس الأحداث والشبان.

وكان استئذاني إياه بتعريب هذا الكتاب أول ما لقيت من التشجيع في هذا السبيل. ففي ربيع عام 1909 بعثت إليه بقصيدة إنجليزية أشعرته فيها بافتقار اللغة العربية إلى مثل كتابه، فأجابني إلى طلبي وأتحفني بنسخة من مؤلفه الآخر «مسرات الحياة».

أجل، إنه شجعني ووطد عزمي بالتصريح لي بنقل كتبه إلى لغتنا العزيزة، وبرسائله اللطيفة التي كانت تردني ردا على قصائدي الإنجليزية لأنني لم أخاطبه إلا بشعر لغته. أما التشجيع الذي لقيته من غيره، فقد كان إقبال بعض رؤساء المدارس في سوريا على هذا الكتاب وتوزيعه جوائز على التلامذة، واهتمام نجيب أفندي متري صاحب مكتبة ومطبعة المعارف بمصر بنشره بين الناشئة المصرية، بحيث نفدت طبعته الأولى واقتضت الحال إعادة طبعه.

ولا أخفي على المطالع أنني كنت ضمن أسوار المدرسة حين عربت هذا الكتاب وطبعته، ولذا فقد خطر لي أن أنقحه قبل إعادة طبعه ففعلت. على أنني قصرت التنقيح على إبدال بعض الألفاظ بغيرها مما يؤدي معناها الأصلي ويكون تحسينًا للعبارة العربية.

وهنا أود أن ألفت أنظار القراء الكرام إلى أن المسلك الذي سلكته في تعريب هذا الكتاب هو غير الذي سلكته في تعريب أخويه «السعادة والسلام» و«مسرات الحياة». ومن ينظر إلى مقدمة الطبعة الأولى يعلم أنني قصدت بتعريبه إلى خدمة إخواني الأحداث، وتوصلًا إلى هذه الغاية آثرت أن أجعل عبارته سهلة وقريبة من القلوب والأفهام، وجعلت لكل قطعة عبارة أو كلمة تعد الفكر لفهم مضمونها. وقد كنت أعنى لتأدية مراد المؤلف لدرجة أن ظهرت على عبارة التعريب مسحة الأسلوب الغربي في التعبير، فعدت في التنقيح أعنى لمحو تلك المسحة حيث أمكن ذلك. ولعل من يذكر أن مضمون الكتاب خواطر وأفكار حكمية يلتمس لي عذرًا مقبولًا في جعل عبارة الكتاب من هذا الأسلوب، وتنسيقه على هذا النمط.

وقد كنت أود لولا ضيق المقام أن أشفع هذه المقدمة بكلمة موجزة في التعريب وأصوله.

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب «معنى الحياة» أزفها إلى الأحداث الذين يعرفون قيمة الكتب الأخلاقية وفوائدها، وإلى الآباء ورؤساء المدارس الذين يريدون نفع البلاد بترقية أخلاق الأفراد، والسلام.

وديع البستاني

مصر في 27 أبريل (نيسان) سنة 1912

الفصل الأول

«المسألة العظمى»

أي شيء أحب للإنسان
من حياة ومن ممات أكره
وهو فهم الحياة ليس يعاني
وعلى فهمها كم الموت أكره

***

إن طول حياة الإنسان، وسعادة حياة الإنسان، له وعليه، لا للأحوال ولا للأحكام.

وإن الذين يبحثون عن حتفهم بظلفهم، ويستعيضون عن بلسمهم بسمهم، لأكثر بما لا يحصى من أولئك الذين تسوقهم الأقدار إلى منياهم عوضا عن أمانيهم، ويظلمهم دهرهم بقضاء مبرم وحكم نافذ. ولئن دكت الصواعق منازل، ودمرت الزلازل أقطارًا، فلطالما طالت يد الإنسان الأثيمة إلى ثل عروش، وإعدام أكواخ، وإبادة بلدان برمتها، وقرض أقوام عن بكرة أبيها.

فلا بدع، إذ هذا، إن قلنا مع سينكا الفيلسوف الروماني القديم، إن ألد عدو لابن آدم هو ذلك الكامن بين حنايا ضلوعه، المتربص في قلعة صدره، كلا -ولا يصعب علينا أن نذهب مع لابروبير إلى أن كثيرين من الناس ينفقون أوقاتهم، ويبذلون قواهم، في سبيل إشقاء بني جلدتهم، وإتعاسهم.

هذا من حيث الشر الصادر عن إنسان، الوارد إلى آخر. ولكن هنالك آفات، لا تسعى فتلسع، بل تلدغ من احتضنها، وهو يكاد لا يوجس منها أدنى خيفة، أو كأنه يدري ولا يدري. فكم من عظام شيخ نخرة بالية، تتألم لما عاجلها من الانحلال، وتتظلم من دم الشبيبة الفائر الثائر، الذي عرضها بغلوائه لما كان يجب اتقاؤه. وقد فاز هو بما اشتهى، وغادرها يتعذر عليها ما تشتهي! يطلب الشيخ القوة، في إبان حاجته إليها، فيصفق صفقة الخسران، ويعض أصابع

الندم، لما جازف بها أيام شبابه، بأن باعها قنطارا بدرهم من اللذة الزمنية، وما كان أولاها بالعكس!

وحاشا لي أن آتي مصداقًا لما رشقت به، من أني لا أنظر إلى الدنيا إلا من جهة حسناتها، طاويًا كشحًا على سيئاتها. وحبذا لو أتيح لي أن أنفي وجود المصائب والكروب، وأكون صادقا. بيد أنني لست من المتسلين بلو ولا، من المنيطين أمورهم بلعل وعسى. ولا مراء أن أمر كلمات يمجها الفم، ويتلعثم بنطقها اللسان، ويثقل سماعها على الأذن، ويصطك في خطها القلم، وتنقبض عند قراءتها النفس، هي هذه: ليتني فعلت! ليتني لم أفعل! سنحت لي الفرص وما اغتنمتها!

ويغلب ألا يكون الشر المرهوب، إلا الخير المرغوب، حاصلًا في غير محله، أو في غير أوانه، أو متجاوزًا حدوده. اعتبر ذلك بالطيش والتهور، بمقابلة الشجاعة والإقدام، وبالسخف والضعف، بإزاء المحبة والرأفة، وبالإسراف والتبذير، تجاه الجود والكرم، وبالبخل والتقتير، حذاء الاقتصاد والاعتدال. وهو من الأمثال السائرة، إن ما يترشفه الواحد هنيئًا مريئًا، قد يغص ويختنق به الآخر، وإن لكل شيء زمانا ومكانا لا يحسن إلا فيهما. وهو من النواميس الطبيعية، أن تزل القدم بماش، فيقع ويدق عظمه، ويرض لحمه. والطبيعة قسطاس العدل، لا تعرف الرحمة، ولا المحاباة.

ليكن لومنا على أنفسنا

ألف الفرس قديما أن ينسبوا سعادتهم إلى أورمزد، روح الخير، وشقاءهم إلى أهرمان، شيطان الشر. ولكنه من المحقق عند ابن القرن العشرين، أن سقطات المرء، وهفواته، وزلاته، سواء أتت عمدا أم عفوا، هي، لا غيرها، مدعاة لمصائبه، وبلاياه. أوليس من الأفعال الوخيمة العواقب، ما نعرفه حتما كذلك ولا نرتدع عنه، وما يلتبس علينا أمره، فتسول لنا النفس الإقبال عليه، على غير بصيرة من نتائجه؟ وإن في الطبيعة البشرية المتنسمة الصلاح من روح الله، أو ذلك الضمير المدعو بصوت الله في الإنسان، لخير وازع ورادع للمرء، يأمره بالمعروف المفيد، وينهاه عن المنكر المضر. ولنا في قوة

الإدراك، وقوة المقابلة والتعليل، المبني عليها الحكم والاختيار، معين آخر يرشدنا إلى الحسن، وينكب بنا عن السيئ.

ولا خفاء أن هذه القوى لا تخلق في المرء كاملة للغاية، بل إن التثقيف بالعلم والاختبار مما يدنيها من الكمال الضروري، لدرجة تمييز الغث من السمين والطيب من الخبيث.

وبكلمة أنه يتسنى للمرء أن يتجنب الكثير من مهالك التصرفات بفضل ما يمحضه إياه أبواه، وأصفياؤه، وأوصياء أمره، من خالص النصح، وسديد الإرشاد. على أن ذلك وحده، لا يكفل عدم عدول الضارب في مفاوز هذه الحياة، عن جادة الأمن، وقد لا يقيله عثراته إذا عثر. وإنما الحكمة كل الحكمة، في أن يعرف المرء أن له نفسا، هو نفسه المسؤول عن تهذيب أخلاقها، وتشذيب عواطفها، وتثقيف مواهبها.

ولا يغترن خريج أي مدرسة بإحرازه قصب السبق على أقرانه، وبنيله أي شهادة أو رتبة علمية. فإن الاختبار قد كشف القناع عن حقيقة نيرة باهرة، جديرة بأن ترسم بأحرف من ذهب على باب كل معهد علمي، ألا وهي: إن المنتهي من المدرسة هو المبتدئ في العالم، المنخرط في سلك كثيرين من أمثاله، وإن عليه كغيره أن يفتح أبواب صدره من جديد، وهذه المرة على ملئها، ليتلقى الدروس التي يلقيها الزمان، والمسائل التي تلقنها الأيام.

القضاء والقدر

بعض الشعوب تعتقد بصولة القضاء والقدر، وتعتبر الإنسان كآلة، أو كلعبة تديرها وتقلبها يد القدرة العلوية كيف تشاء. فلنقف نتأمل!

قال جان رختر: إن الإنسان هو الإنسان، ورب أمور نفسه. فله أن يجعل حياته مواكب فوز وانتصارات، أو مآتم تقصيرات واندحارات. وإن هذه إلا مشيئة الله، جلت حكمته، في الجبلة البشرية. وحسبنا ما وهبنا إياه مع العقل والنطق من شعائر ضمير حي هو لنا بمثابة وزير خبير محنك، سديد الرأي، صائبه.

وإذا ثبت، أن لنا بعض السلطة على حاضر أمورنا ومستقبلها، ترتب علينا، أن نسبر غور أنفسنا، وأن نمحصها تمحيصا، بحثًا عما نحب أن نصير إليه، وعن السبيل إلى ذلك. والناس من هذا القبيل فريقان: فريق ذوي المقاصد، المتطلبين شأوًا، الرامين إلى غاية، وفريق القائلين «دع المقادير تجري في أعنتها». ومن البديهي المقرر، أن أول واجباتنا وأقدسها، بل أكبر حق لنا كأبناء الإنسانية الحقة، هو أن نستخرج من أنفسنا ثمالة ما فيها من الخير والنفع، وأن نستنفد ما لدينا مما يروق ويفيد.

والتاريخ يحذرنا من العزم على ذلك طمعا بتحقيق آمال افتخار باطل. فإن المجدين في أثر الأعمال المجيدة، حبا بالتمجد والاستئثار بالشهرة لا غير، لقلما يفلحون. وإن النفوس الكبيرة التي لا نزال نجهلها ونكبرها، ونستدر فوائد آثارها كنفس أفلاطون، وأرسطو، وبوذا، وبولس الرسول، لما كانت كذلك لو كان اجتهاد أصحابها مقصورا على الرغبة في إحراز مآرب نفسانية، دون التفاني في خدمة الحق والحقيقة.

النصح

يروى أن رعية سئلت عن قسيسها فأجابت: قضينا عليه لفرط ما قدم لنا من الإرشادات والنصائح.

ولكن لا مشاحة أن من يستنكفون من الأخذ بالنصائح المبذولة لهم مجانا في يومهم، يأتيهم وقت يشتهون فيه أن ينالوها ولو ببذل النفس وكل نفيس لديهم، وما ذلك إلا وقت التندم والتأسف على ما فات.

وجل قصدي في تأليف هذا الكتيب، أن أعرض ما يخطر لي من الفوائد والمشورات، على جمهور الأحداث خصوصا، ولا سيما على ذوي المقاصد منهم.

تبين حقيقة الأحوال

ومن البلية أن يبلغ جهل الإنسان لماهية السعادة، وكيفية التمتع ببركاتها، مبلغ أن تحدق به أسبابها من كل جانب، وتسنح له فرص الأخذ بنواصيها مع

كل سانحة، فلا يعمل على جمع أسبابها المتفرقة، ولا على تعرف وجهها الصبوح.

وخير ما يقال بهذا الصدد، إن السعادة ليست نتيجة ائتلاف ظروف واتفاق أحوال، بل هي حالة من أحوال النفس لا أكثر. وفي رأي أحدهم، أن السعادة تقوم بتكييف أنفسنا، وتهيئة ذواتنا، بالنسبة إلى محيطنا. وهو من العبث المحال، أن نحاول قلب ما حولنا لكي يوافقنا هو، وينطبق على أذواقنا ومطالبنا.

وقد أغنانا العلامة هيوم بقوله: إن مجرد النظر إلى الحياة بعين قنوعة راضية يساوي راتب 10000 جنيه سنويًّا.

فجرب أن تتعرف كل ما لديك من الآلاء والنعم، يتبين لك ما لم يكن في حسبانك، ولا خطر لك ببال. وكم من ذوات بال لا تدرك قيمتها، إلا ساعة تندم على فواتها.

السعادة الوهمية

ولكن حذار حذار من الاستغناء بالمسرات الوهمية، عن المسرات الحقيقية. ولا غرو أننا بقصد المسرة أحيانا نفعل أفعالا ليس فيها من السرور إلا الاسم. وكم من كسول معطال، يفتخر بأن قضى سحابة نهاره جذلا مسرورا، لأنه لم يتحرك لعمل من الأعمال. وكم من متورط بالملذات الجسدية، يحسبها وحدها ينابيع المسرات ومصادر السعادة، وقد فاته أن لذة العقل ولذة الروح ولذة النفس، أوفر وأبقى وأسمى بما لا يقاس.

فلتعمل إذن على إيجاد رغائب محمودة لنفسك، تسعى إلى إدراكها، بدلا من التمرغ في حمأة الشهوات، والملاذ الزمنية الموبقة.

الإنسان جحود جاهل

نُعطى جسمًا صحيحًا، فلا نهتم أن نتركه معتلًّا، وعقلًا سليمًا، فلا نلبث أن نغادره سقيمًا. مغدقات النعم تكتنفنا من كل جهة، ونحن عن التمتع بها قاعدون غافلون. وليت شعري! هل (نحن الإنجليز) نستفيد بقدر النصف فقط

مما يمكن أن نستفيده من التصوير والحفر، والنقش والموسيقى، تنزيهًا لنفوسنا التي من طبعها حب الإتقان والإعجاب بالمتقنات الجميلة؟ بل إن الإنسان يحقر آيات الجمال المرسومة على ألواح الطبيعة حواليه، وتكاد لا تبهجه مناظر السماء المعروضة فوق رأسه.

نفتخر بما لنا من العقل، علاوة على الغرائز الحيوانية. ولكن يا للعار! أي سعادة نستدرها من ضرع العقل، ونغذي بها نفوسنا؟ بل يا للأسف! إن هذه الميزة نفسها أمست لنا مصدر آلام، وعذابات، لما يتناوبنا بسببها من رعدة الخوف وضيقات الشك والريب والانهماك والقلق والاضطراب، مما لا ينال الحيوان بشيء. قيل الإنسان يمشي في ظل باطل، ويشقي نفسه للا شيء. والحقيقة أننا بالنسبة لما يزال مستورًا عن أفهامنا، لجهلاء أغبياء. فالواجب أن نصبر على جهلنا، ونعيش بما أوتيناه من المعرفة مهما كان زهيدا.

مطليات الرذائل

الرذيلة بحد ذاتها مخيفة وكريهة، تهرب منها النفس وتعافها. ولكن هناك رذائل تتلبس بالفضائل، وتظهر بردائها، فتغر من يغتر وتغتاله، فمن هذه ينبغي الحذر كل الحذر. رأى بعضهم أن الطفل ملاك طاهر. ومهما كان من صحة هذا الرأي وعدمها، فإنه بلا ريب صعب الاحتمال أن يستحيل الإنسان من صالح إلى طالح في يوم واحد. لأن طبيعة الخير فيه ليست سهلة الإمحاء لهذا الحد.

الامتيازات الإنسانية

قال الفيلسوف إسحاق نيوتن: إن الناس مع كل ما بلغوه من المعرفة وتوصلوا إليه من الاكتشافات، ليسوا إلا أولادا صغارا، يلتقطون الأصداف والأعشاب التي ينبذها ويقذف بها بحر الحقائق وخضم المجهولات من حين إلى آخر.

نعيش بين العناصر المختلفة، والمواد المتنوعة، وليس من مادة واحدة نعرف عنها كل ما يمكن أن يعرف. فها البخار، بعد أن استمر يتصاعد من

البحار قرونا غير معدودة، وظل يرتفع من أفواه القدور والجفان أجيالا إثر أجيال، عثر باحث على بعض خاصياته، فأخذت تتوالى استخداماته، وتتفاوت منافعه. ولكن هل قضينا اللبانة منه، أم فيه أمل لباحث ومستنبط بعد؟ وإليك مثالا آخر، الكهربائية الأزلية الأبدية الوجود، فإنها لم يستطلع طلع أمرها إلا منذ عهد قريب، ولا نخالها إلا مستغرقة كل المستقبل، لاستعلان أسرارها، وجهد ضرع منافعها. ويقال الاكتشاف مغطى بقشة، وليت شعري كم من قشة باقية غير مزاحة نمر بها ولا علم لنا بما تستره عنا من الكنوز؟

ومن عسى أن يزيل تلك الغشاوة النحيفة عن عيون الناس، أو ذلك البرقع عن وجه الحقيقة، فيكون بذلك ارتداع الأمم عن شر الحروب، والاكتفاء من مصائبها وخسائرها الفادحة.

التعليم والأخلاق

لقد بلغ بنا تساهلنا المدرسي في الأمور الأدبية المحضة والدينية مما يتعلق بتصرفات الشخص وسلوكه، درجة أن بات الغر منا يعلل لنفسه كما يشاء جواز تصرفاته الآيلة إلى نفعه الخاص أحيانا، وإلى هلاكه الشخصي أخرى، وإلى الإجحاف بحقوق الغير دائما. فكأنه يقول في نفسه: إن عدولي عن خطة الاعتدال في ما خص جسمي لمما تخولني حقه حريتي الشخصية، وفعلي تلك المحرمات، على يقين اختفائها عن أعين الملأ، مما يوفر ثروتي، إلى غير ذلك مما يميت الضمير ويترك القائل الفاعل نذلا ساقطا لا يلبث أن يشف ثوب خبثه ورياؤه عن حقيقة خلقه.

لا رجولية في إتيان المنكرات

يتوهم بعض الشبان أن إتيان المنكرات، والإقبال على بعض الرذائل، على ما فيها من المخاطرة والتغرير بالنفس، يتوهمون وإن هم إلا متوهمين أن ذلك مظهر من مظاهر الرجولية. والحقيقة أن أغبى الأغبياء، وأنذل الأنذال، يمكنه أن يكون رذيلا، بل الرذيل هو إياه بعينه. وإنما البطل الشهم، والرجل

الحق، هو الخائف المتنحي عن فعل ما تحتقره طباعه السامية وتأباه خلاله الشريفة.

وليعلم الملقون حبل النفس على غاربه، السارحون المارحون في هواء أهوائهم، أنهم هم المقيدون بأغلال الحق وسلاسل الإنسانية العادلة الحاكمة عليهم بالاحتقار والامتهان، وإن كانوا لا يشعرون. أما الحرية نعم الحرية، فبالانطلاق إلى الفضائل والمستحسنات كل انطلاق، وبالانحباس عن ضدها كل انحباس.

الخطيئة والشقاء حليفان

وقد جاءت نصوص الوحي مؤيدة لهذا الزعم. ناهيك بما في حالة الأشرار حتى في هذه الدنيا من النكد والتعس والبلاء، من العبرة لمعتبر. فأي سارق، أم أي زان، أو متعد لحدود غيره أو نفسه على الإطلاق، يغبط ويحسد؟ بل من من هؤلاء لا تأخذنا الشفقة عليه إذا تركنا وجوب احتقاره جانبا؟

مبادئ ديكارت

أولًا- أذعن لشرائع الديانة التي ربيت عليها.

ثانيًا- اعمل كلما سنحت لك فرصة العمل وبكل طاقتك، وبأوفر ما يتيسر لك من الحكمة والتدبير، غير مبال بالنتائج سواء أتت مكافئة لاجتهادك أم لم تأت.

ثالثًا- اقصد إلى السعادة، عن طريق تعيين الأميال، وبعد تبين شأوك منها، لئلا تضل وتتيه عن كل قصد بتطلب كل أمنية، ومحاولة تحقيق كل رجاء.

رابعًا- ليكن سعيك وراء الحقائق شغلك الشاغل مدى الحياة.

نصائح للي

1- نم مع الحمل، وانهض مع العصفور.

2- كن جذلًا متهللًا ولكن باحتشام.

3- كن وقورًا متحفظًا ولكن دون درجة الشكاسة والتكبر.

4- كن مقدامًا غير متسرع ولا متهور.

5- ليكن مظهرك أنيقا لدرجة إرضاء الناس لا إعجابهم.

6- وليكن طعامك مغذيًّا، لا مدعاة للنهم والجشع.

7- وليكن لهوك كالمراد بالكلمة للتخلي عن العمل بقصد الراحة، وأبدا في ما لا غبار عليه.

8- لا ترتب في أحد، ولا تخون أحدًا، بدون سابق تجربة واختبار، ولا تصدق كل شيء مستغنيًا عن الأدلة والبراهين.

9- لا تكن خفيفًا بسيطًا لدرجة الانقياد الأعمى لكل ذي رأي، ولا مستبدًّا عنيدًا متفردًا برأيك.

10- اعبد الله وخفه وأحبه، وهو يباركك بما يتوق إليه قلبك ويشتهيه لك المخلصون.

كأس الحياة لا تصفو من الكدر

وهل من نور شمس ساطع بدون ظل واقع؟ دع الأحزان التي يخلفها الحبيب الراحل عنا إلى ظلمة القبر، واعتبر بما يكون منشأه جهلنا لحقيقة وجودنا، وقصورنا عن معرفة حقائق ما حولنا، وقل مع القائل: والليالي من البلايا حبالى. فبنات الدهر تزف إلى كل مخلوق. ومن الناس من يحسبون الإقلاع عن طيبات الحياة، والتباعد عن مسرات الدنيا، أبر وأصلح لما يرون من ربو الأتراح على الأفراح. بل إن بعضهم يقول بأن السماء لا تنفتح أبوابها إلا لمن يقاسي عذابات الأرض ويبتلى بمصائبها. وهو قول خارج عن دائرة الصواب، وإن كان نافذًا من كبد الحقيقة. فإن أخا البر والصلاح، قد لا يصادف ما هو في عرف بني الدنيا عذاب أليم.

ولكن الحق الصراح هو أن القائم بواجباته حق القيام لم يحقد ولن يحقد على دنياه، مع أنه قد ينظر إليها شزرًا ويرمقها بطرف الأسف من حين إلى آخر.

ولقد أحسن من شبه العالم بمرآة، كل ما تنظره فيها منك ولك.

وقد قال شاعرنا ملتن:

لا تقابل فعل الطبيعة باللو
م ولكن عليك فاقصر ملامك
إن تكن أشهرت عليك حسامًا
فلماذا أغمدت عنها حسامك
هي تأتي بما لديها انتظارًا
أن توافى بما يكون أمامك

وإنه سبحانه لو لم يكن من مشيئته أننا نتنعم بخيرات الطبيعة ومحاسنها، فلم خلقها جذابة لأعيننا، مشنفة لمسامعنا، خلابة لألبابنا؟

فيوم علينا ويوم لنا

وقد قيل: إن الحياة رواية هزلية للعائشين بعقولهم، ومحزنة للعائشين بعواطفهم وقلوبهم. والحق أنها هذه أحيانا، وتلك أخرى، فحياتك كما تريدها أنت أن تكون.

إنكار الذات أدعى للسعادة من حبها

أجل لا ننكر أن كثيرا مما نعرفه كخطيئة أو منقصة، لذيذ ومسر لوقته، غير أن تلك الصبغة الخارجية والتزويق الجذاب، أشبه تأثيرا ونتيجة بالطعم الذي تتهافت عليه صغار السمك ظنا منها أنه أكلة سهلة المساغ.

والقليل من التأمل في مصير أحوال المتمردين على أحكام الطبيعة والعابثين بنواميسها، يهدينا إلى صواب القول من أن البعض يشترون مسرة ساعة بندامة سنين تبتدئ حيث تنتهي تلك الساعة.

وليصدقني القارئ إذ أقول إن من أراد أن يعيش ويموت سعيدًا، بقطع النظر عما قد يكون وراء الموت، فعليه أن يعيش على الصلاح والتقى قبل كل شيء.

اليسر والتوفيق قد لا ترافقهما السعادة

فكم ممن توفرت لهم جميع وسائل الراحة وتيسر لهم كل ما من شأنه الإسعاد، من يحسبون أنفسهم من أنكد الخلق حظا وأسوأهم طالعا. فالثروة

ليس قليلا ما تعطي، ولكن الفكر هو ما يجعل ذلك الكثير كافيا بحيث تشعر النفس بالقناعة والارتياح، وقل السعادة. ولئن لم يكن في وسع الجميع أن يتربعوا في دست المناصب السامية، وأن يمرحوا في بسطة الجاه مرعيي الجانب، فهو في إمكان كل فرد أن يصير برًّا نزيهًا كريم الخلق وأخا حكمة ودراية. والعبرة في الغنى الحقيقي ليست بما عندنا من المال، بل بما لنا من الخلال، وبما نأتيه من الأعمال.

السعادة نصيب من عرفها وطلبها من بابها

إن السعيد لمن يستسهل الصعبا
ويترك المر من نياته عذبا
ويكبح النفس عند الميل متخذًا
من القناعة دينًا والعلا ربا

****

واليأس ظلمة موت فلنعد له
من الرجاء حساما ماضيا عضبا
ولنعلمن بأن الكرب يقتلنا
إذا ابتلينا ولم نستهون الكربا
فلنحسب الحلو من لذاتنا دنسا
ولنترك السهل من أهوائنا صعبا
وما السعادة في بدء الفعال ولـ
كن السعادة في الإنهاء والعقبى

الفصل الثاني

«سلامة الذوق»

إن سلامة الذوق في الأخذ والعطاء، والبيع والشراء في أسواق الحياة، أدعى للنجاح والفلاح من سائر المواهب والعطايا الطبيعية كما سيتضح في ما يلي:

تجارة اللطف

لا تضع فرصة يتسنى لك فيها إرضاء الناس وإعجابهم، وكن أنيسا رقيقا لطيفا ما استطعت. فإن الأدب لا يكلف شيئا ويشتري كل شيء، فجرب إذن أن تكسب الناس بتجارة الرقة واللطف والاحتفال بهم. وقد نصح أحدهم للملكة أليصابات أن اعملي على اكتساب قلوب الرعايا، فقلوبهم وجيوبهم وكل ما لهم تصير إذ ذاك بين يديك.

اللطف قد يغلب القوة

ولنعتبر ذلك بمغزى هذه الخرافة:

هبت الريح من خباها يجر الـ
عجب منها من الغيوم ذيولا
ومضت تهصر الغصون بعنف
وتجري من السحاب سيولا
وتقول: اعلمي أيا شمس أني
منك أقوى أصير المستحيلا
فأجابت من سمتها وعلاها
أنا أخشى جدالنا أن يطولا
ليس أقوالنا تدل علينا
فليكن فعلنا علينا الدليلا
إن هذا مسافر قد تردى

لاتقى شرنا رداء ثقيلا
فليكن أن من يعريه منه
يحرز الفخر والمقام الأثيلا

***

فأهيجت لذلك الريح تبغي
بقرين مكابر تنكيلا
وانبرت تجذب الرداء وتعلي
عثير الدرب في الفضاء تلولا
وابن ذاك السبيل يشتد أزرا
برداه يطوي السبيل عجولا
ثم قالت للشمس مثلت دوري
دورك الآن مثلي تمثيلا

***

سكن الجو والغيوم اضمحلت
وكثير الغبار عاد قليلا
وتبدت مليكة الجو تسدي
بسناها شأن الكريم جميلا
واستمر المعهود يمشي الهوينا
ليس يخشى لحاله تبديلا
ورأى الحر محرقا فتعرى
من رداه وراح يطوي السبيلا

***

علمت عند ذلك الريح أن اللـ
ـطف يولي عنف القوي تذليلا

الناس يقادون أكثر مما يساقون

فالأفضل في كل الأحيان أن تستميل وتستدعي لا أن ترغم وتجبر. ورب إبراق أسرار، وإشراق محيا، وتبشير بوعد، يكون أفعل من ضربة سيف، واربداد وجه، وإنذار بوعيد.

ثقة الآخرين

جرب أن تكتسب ثقة من تعاشر وتعامل. وإن تم لك ذلك عن طريق الاستحقاق والأهلية فهو الغاية. والسواد الأعظم من ذوي المناصب وأولي الأمر والنهي والحل والعقد، مدينون بنفوذهم لحسن خلقهم وحميد سجاياهم.

«بلى» و«لا»

جرب أن تقابل التماسات الناس وطلباتهم بالإيجاب ما أمكن ذلك وجاز. ولكن لا تتردد أن تأباها عليهم عند عدم الاستطاعة وعدم الصلاحية. ومن المعلوم أن أيا كان يستطيع التلفظ بنعم الإيجابية ولكن قل من يقدر أن يتلفظ بها بلهجة مرضية تسر المخاطب.

أما الرفض «بلا» فهو أصعب جدا. وكثيرون كان عجزهم عن النطق بهذا الحرف علتهم وآفتهم. وإذا كان مجرد إخراج هذا المقطع ضروريا في أعمال الحياة بهذا المقدار، فليس ظرف إخراجه بحيث يروق السامع بأقل ضرورة.

وليكن في جملة ما يهمنا ونعبأ به، أن نشعر زملاءنا وعملاءنا بحلاوة عشرتنا وصدق معاملتنا، لكيلا تستفزهم النفرة منا ولكي لا يملوا ملازمتنا والتعاطي معنا. ومن أميال الإنسان الطبيعية أن يعامل بالرفق والرقة وأن يحتفل بأمره.

رياضة النفس على إعجاب الغير

ربما تسنى لأي شاء أن يصير نفسه مرضيا مقبولا قريبا من القلوب إذا هو رغب في ذلك واهتم له. وقد قال اللورد شسترفيلد في إحدى رسائله: إن الرغبة في الإرضاء هي نفس هذا الفن. وهذا بديهي لما أنه يستحيل على من لا يرغب في إرضاء الناس أن يرضيهم. وإذا أنت لم ترض نفسك في هذا المضمار، وتتفقدها من هذا القبيل، وجدت الرجوع إلى مثل ذلك بعد الكبر، بعيد الشقة خشن المركب.

وكثيرون من الناجحين المفلحين ما كانوا كذلك لولا رقة في شمائلهم ودماثة في أخلاقهم وظرف في سلوكهم، كما أن كثيرين من ذوي الوزنات الراجحة وأصحاب النيات الصالحة يكثرون أعداءهم ويقللون أصدقاءهم بخشونة في ملمسهم وقلة لباقة في حركاتهم وسكناتهم.

ناهيك بما في العمل على مسرة الغير من السرور الشخصي للفاعل ومن جرب عرف.

استصغار شأن الغير

إذا وجدت بين قوم تخالهم دونك براعة ومهارة، فلا تنظرن إليهم بعين الاستصغار والاحتقار، فإن الوارث للمال الكثير عظيم في أعين الناس بقدر ما يحسن القيام على ذلك الإرث والتصرف به. ولا فرق بين التراث المادي والأدبي من هذه الوجهة.

درس الناس

إذا كانت قراءة الكتب سهلة يسيرة، فقراءة الوجوه ليست كذلك. وفي درس الأخلاق يجب التعويل على العينين بالأكثر، فإنهما مرآة تنعكس عنها أشعة الروح. ويقول إمرسن: إذا ادعى اللسان شيئا ودلت العينان على آخر، فالأولى بالتصديق العينان. فالأحرى بك ألا تعلق كثيرا من الأهمية على الكثير من مزينات الادعاءات ومزخرفاتها التي قد تتلقاها من فم من لا تزال حديث العهد بمعرفته ولم تخبره بعد. وإذا تملقك الغريب وغمرك بالوعود وقضى عجبك بما يبديه ويدعيه، فإياك أن تحله من نفسك محل من تثق بإخلاصه، فتنيله مبتغاه من خيانتك وغدرك.

وزبدة القول ألا تحسب كل آل ماء، ولا كل أبيض شحما، ولا كل متحل متجمل بالكلام كثير الادعاء والتزلف صديقا حميما. كلا، ولا تستخفن بأمر معرفة أعدائك وأخصامك وتمييزهم من سواهم.

القلوب والعقول

كثيرا ما نفتخر بكوننا مخلوقات عاقلة، شأنها الاقتناع بالبراهين القاطعة والحجج البليغة. على أنه من الخطأ الفاحش أن نحسب أنفسنا دائما كذلك. فإننا والحق يقال أكثر انقيادا وتسليما لعواطفنا وأميالنا وأهوائنا وأغراضنا منا إلى دواعي العقل المحضة الناشفة. وهذا القول يصدق على الجموع أكثر مما يصدق على الأفراد.

المجادلات والمحاورات

قلما تكون المجادلة سليمة العاقبة ولو كانت سهلة المسلك، وكثيرا ما تنتهي بالمتناظرين إلى سوء التفاهم.

فقد تؤيد بالبراهين وجهك، وتربح الدعوى كما يقال تمثيلا، وتخسر صديقك المناظر في ذات الوقت. وبئس الربح، ويا للخسارة إذ ذاك! هذا فضلا عن أنك إذا غلبت مناظرك بأن ثبت زعمك، ودحضت أقاويله وأضعفت أسبابه، فقد لا تكون أقنعته، وما الفائدة إذ ذلك؟

فالأفضل في هذه المواقف أن تبدي رأيك، (إذا لم يكن بد من ذلك) بصورة جلية واضحة، مجربا أن تنبه مناقضك فيه إلى احتمال إغفاله وجها من الوجوه، أو عدم إلمامه بحالة من الأحوال المتعلقة بالموضوع.

فن الكلام

الكلام فن مستقل بذاته، بأصوله وفروعه وفصوله وأبوابه. ومن كان غني الخزينة من العلوم ممتلئ الصدر من الاختبار، فقد لا يتيع بحكم القياس أن يكون فصيح اللسان رائع البيان عذب الحديث، لا يخدش أذهانا ولا يجرح إحساسات.

المحدث والسامع

وكما أن للتكلم شروطا وأصولا متعارفة معتبرة، فكذلك للسماع والإصغاء ما لا يقل اعتبارا وأهمية. فلا تقابل كل ما تسمع بالتفنيد والانتقاد. بل احتجن رأيك، وأجل حكمك ما استطعت، ريثما تسنى لك أن تلتمس للقول تخريجا أو تأويلا أو للقائل عذرا مقبولا، واعلم أنك إذا تجاوزت عن هفوات الغير مرة بعد

أخرى، عرف ذلك عنك، ونسب إلى فضل وحلم فيك، ونعم هاتان من خلتين تحببانك إلى الجميع.

الحديث وحداثة السن

من كان حديث السن بعد، ووجد في حضرة من هم أكبر منه قدرا وعمرا، فلا ينتظرن كل الإصغاء وحسن الوقع لما يقول. ومن ثم فليقل من الكلام، وليكن حظه من مجلس كهذا الجلوس باحتشام، ورعي السمع التام، ولعمري أنه لأوفر نصيب.

الكلام وتسبيب العداوة

إذا نطق السفيه فلا تجبه

فخير من إجابته السكوت

وقد ورد في أمثال الحكيم: الجواب اللين يرد الغضب.

هذا ولا يغرب عن أذهاننا أن الإجابة بنزق وغضب أخف وطأة وأسلم نتيجة من التهكم والتقريع والاستهزاء. وتسعة من عشرة يحتملون من الإساءة والمذمة ضعف ما قد يطيقون من جوارح أنياب الاستهزاء والسخرية.

لا تبك إن ضحك عليك

لا تكن مستعدا لأن تثب على جماعة من المعارف تغشاهم يتهامسون ويتقهقهون وثبة الارتياب وسوء الظن فيهم، فقد لا تكون أنت موضوع سرهم وضحكهم. هذا ولا تجزع إذا صدق حدسك، وصح تخمينك، وعرضت لملحهم ونكاتهم المؤلمة نوعا. بل إنك لتستظهر عليهم، وقد تجتذبهم إلى نفسك وتربح مودتهم، بمجرد مشاركتهم على نفسك. لأن الإنسان من طبعه أن يعجب بمن يحتمل الهزل إعجابا يقارب التودد والإخلاص. فالنصيحة إذن أن اضحك على نفسك لا يضحك عليك الآخرون.

شجاعة المبدأ

لا تخش أن تظهر مبادئك وأفكارك، حتى عند كونك لا تأمن استخفاف الآخرين إذا فعلت، فإن استخفافهم هو الأولى بالاستخفاف. لأن العيب ليس في أن تعيش على ما أنت مطبوع عليه بل في تكلف شيء في طباعك ضده.

المرء يعلي ويسفل نفسه بنفسه!

الشخصيات والكلام

كن حر الضمير ومتكتما في وقت واحد. وأقل من الكلام عن نفسك، أو لنفسك، أو على نفسك. ودع غيرك يتكلم لك عن نفسه ما يشاء. فإن الغير إذا هم باشروا الحديث بأمورهم الشخصية، فلأنهم مولعون بذلك ويلتذون به. وأنت إذا منحتهم بشرك وأعرتهم أذنا واعية، أوليتهم منة يحسبونها لك من جملة الحسنات.

ومهما كان من أمر محدثك، فلا تقدم على إظهار عيوبه لعينيه اللهم إن لم تكن الحال بمقتضياتها تلقي ذلك على عاتقك واجبا ثقيل الأداء، فإنك قد تكون مخطئا في تقديرك أو قد تحمله على الظن فيك بالمثل.

إهانة المجتمع عامة

إذا وجب الحذر من إهانة الفرد، فالتعريض بالطائفة أو الجماعة كطائفة وجماعة أوجب للحذر وأدعى، لأن جرح إحساسات الفرد يسير المداواة في الغالب، أما أذى الأفراد كهيئة فقد يعد ذنبا لا يغتفر.

الصبر والتأني

في كل مهمة وكل معاملة تقيد بالتأني واعتصم بالصبر. كثيرون يرضون بإقبالك على استماع سؤلهم عن إقدامك على إجابته. وكثيرون يرجعون عن مصادرة من يصادرون، ومناضلة من يناضلون، لما يقابلون به من التؤدة وطول الأناة.

سكر الحدة وضياع الرشد

وقبل كل شيء احترس من سورة الغضب. وإذا أخذت الحدة منك كل مأخذ، فأمسك عنها بالأقل لسانك كل إمساك، خشية أن يبدر منك من القول ما تود بعد حين لو تسترجعه إلى حيز الفكر، وهيهات أن يتسنى لمتندم مثل ذلك.

التحرش والفضول

يروى عن الملك جيمس (ملك اسكتلندا وأيرلندا وإنجلترا) أنه خاطب ذبابة أضجرته بطنينها أمام عينيه، بمثل هذه اللهجة:

ألست مليكا للثلاث ممالك

وهذي ما لي؟ فلتكن بعض ما لك!

وما لك في عيني تطرين ما لك؟

فالرأي ألا تزج بنفسك حيث لا تراد ولا يحتاج إليك. وأرض الله واسعة الفضاء.

علم الناس

لا فرع من فروع العلم المتشعبة أجزل فائدة من فرع علم الناس، فإنه من الأهمية بأعظم مكان، وكيف لا ولا بد لمن يطلب النجاح حليفا والفلاح أليفا، من التمييز بين من يوثق ويركن إليهم، وإلى أي الدرجات وفي أي المهمات، وبين من ليسوا على شيء من ذلك.

الثقة في الناس

لا تستخدم ولا تعامل من لا تحسن الظن فيه. ولا تسئ الظن في من تستخدم وتعامل. واذكر أن المؤمنين الناس أكثر في الغالب إصابة من المخونين لهم. والثقة يجب أن تكون كاملة تامة، وأبدا عن بصيرة.

النصح والنصيحة

كن متكتما متحفظا بقدر الإمكان. فلا تعرض نصيحتك عرضا على كل الناس ولا تمسكها عن أهلها. فم الحكيم في قلبه وقلب الجاهل في فمه.

التروي قبل العمل

استشر العقل وخذ بمشورته. ومع أنه غير معصوم، فلعله يكفيك شر كثير من الخطأ والزلل.

عود على بدء

إن حسبنا كلامنا فضيًّا
كان حقًّا سكوتنا ذهبيًّا

وكثيرون يتكلمون لا لأن لديهم ما يضطرهم إلى الكلام، من حاجة أو غرض في النفس، بل لأنهم مولعون بحب الكلام لا غير. على أن الكلام يجب أن يكون تمرينا للعقل ولذة له لا رياضة لعضلات الحنك واللسان.

ولا مشاحة أن هذه العادة وصمة على صاحبها، وعثرة في سبيل نجاحه. فإن المهذار المكثار قد يستطرد على غير هدى إلى ما يندم على قوله بعد حين ويود لو لم تحل لكنته من أجل ما فرط منه.

يقول لابروبير إنها لمصيبة كبيرة أن يعدم إنسان رأيا إذا أراد الكلام، أو قوة إرادة إذا رأى الصمت.

لا تكن شديد التشبث بما تحكي أو تروي أو تقول على الإطلاق، فقد تشط الذاكرة بك عن دوائر الحقيقة وأنت لا تدري، أو قد يكون الغرض والميل متلاعبين ببراهينك على غير علم منك. هذا واليقين في غنى عن التأكيد.

الفرص

قف للفرصة بالمرصاد، حتى إذا أنست منها اقترابًا أخذتها من ناصيتها، فهي أشبه بعجوز شمطاء، عبثت السن بفودها وقذالها، واستبقت على غرتها، فإن ولت فقد نجت، وهيهات أن تعود.

الملابس

غاية ما يجب، أن تكون ملابسنا نظيفة مهندمة محتشمة، وليس من الضروري أن تكون أنيقة لدرجة البذخ والأبهة، بحيث نحمل على الإسراف

بذات الوقت وذات الكيس.

ومما يستنفد العجب، مقدار ما يعتبر الناس الملبوس في حكمهم على الملابس.

أوليس الذين يعرفونك بالنظر أكثر بكثير من الذين يعرفونك شخصيا؟ وهؤلاء كم يستدلون عليك بهيئتك ومظهرك الخارجيين.

وإذا صرفنا النظر عن هذه الوجهة الخصوصية وأرسلناه في وجهة عمومية، قلنا إن قليل الاعتناء في أمر اللبس، قد يكون قليله في سائر أموره أيضا.

***

أزاهر الأخلاق

إن اللطافة والظرا
فة والرشاقة واللباقة
زين تزينه المود
ة والأخوة والصداقة
فأزاهر الأخلاق هـ
ذي اختر لنفسك صاح طاقة
فالناس تكرم من يكو
ن به على الإعجاب طاقة

الفصل الثالث

«المال»

وحسن القيام عليه وصرفه في سبيله

يسوؤني أن أرى أبناء وطني محتقرين لمبدأ الاقتصاد، فإنهم يصلون آناء الليل بأطراف النهار سعيا وراء الأصفر الرنان، ولكنهم لا يكادون يجمعون شمله حتى يشتتوه، والنتيجة أن غيرنا من الشعوب يفوقوننا باقتصادهم.

والاقتصاد لغة هو التوسط بين الإسراف والتقتير، وخير الأمور الوسط.

أوصى أحدهم ولده وهو على حافة القبر بما علمه إياه الدهر، فقال: إذا أردت أن تصير غنيا فانظر إلى ما تصرف لا إلى ما تحصل.

فقبل تحية البائع: يحسن بالمزمع أن يشتري شيئا أن يفكر في هل ما بنيته استبداله بذات جيبه ضروري لدرجة ألا غنى له عنه أم لا.

لماذا يلزم الاقتصاد؟

بقطع النظر عن الإثراء، إنها لآية من آيات الحكمة البشرية، أن اقتصد في يومك وإن كنت أسدًا في قومك، حذر أن يعضك كلب الجوع في غدك أو بعد الغد. هب أن الزمان عاداك من بعد ما والاك، وكان من عدائه أن أمسيت وحولك امرأة تتستر برث الثياب، وصبية يعولون شوقًا إلى وجه الرغيف، أو أن بت وقد وصف لك الطبيب الدواء، وليس في يدك ما تبتاعه به، أو أن أحد أعضاء عائلتك لزمه تبديل المناخ استبراء من علة أو داء اعتراه، ولا قبل لك بتنفيذ ذلك اللازم، أو أن أصابك أنت ما يضطرك إلى الانقطاع عن العمل والتسبب للمعاش، إلى آخر ما هنالك من المصائب المألوفة الوقوع، هب كل ذلك أو بعضه وتخيل لنفسك كم تعض أصابع الندم وكم تتأوه وتتأسف، حين لا يجدي تأوه ولا تأسف ولات ساعة مندم.

فلاتقاء شر الغد، واستقبال مواليد الليالي الكريمة أم اللئيمة لا تدري، لمثل ذلك يجب الاقتصاد.

وإنني لا أنكر أن الاقتصاد حبا بالاقتصاد ذاته، خلو من كل فضيلة ومحمدة. وأؤكد أن الاقتصاد حرصا على الحرية الشخصية، والاستقلال الذاتي، وحفظا للمقام الاجتماعي، عنوان الفضيلة والرجولية.

كيف السبيل إلى ذلك؟

أمسك حسابا لدخلك وخرجك وليكن ذلك بيد الاعتناء والتدقيق. لا أعني أنه ينبغي تقييد كل نبذة حتى الزهيدات الطفيفات، بل الحزم كل الحزم في مراقبة الخارج والداخل من الجيب وإليه، لكيلا تكون متكلًا على ضيف أصفر أو أبيض لم تكرم وفادته، بل ما كاد يستضيفك حتى أرجعته من حيث أتى، ولكيلا تحسبك صفر اليدين عزلا من الإخوان الأعوان، ومن أحللتهم من مستودعك على الرحب والسعة يتلهفون إلى فرصة احتياجك إليهم، وإعوازك إلى إشراق وجوههم، وصلابة عودهم، وخلوص معدنهم.

وإذا صح تشبيه الإسراف بهوة تردي كل من انحدر إليها، فأول خطوة نحو تلك الهوة تكون غض الطرف أو إغماضه أو إعماءه عن زوار الجيب خروجا ودخولا.

على قدر البساط مددت رجلي

ومهما عملت فلا تخرج بمصروفك عن دائرة مدخولك. ولتصبح في غرة كل عام، ولديك تذكار من إثمار العام الفائت.

أما رأس الحكمة فمخافة الدين. فخفه إن كانت الحكمة في رأسك.

قال سكوت، روائينا الخبير بأمور الناس، بلسان أحد أشخاص رواياته ما فحواه: رجل محصوله السنوي 20 جنيها إفرنجيًّا ومصروفه 20 جنيها إلا شلنًا واحدًا. وآخر دخله السنوي 20 جنيها أيضًا وخرجه 20 جنيها وشلن واحد. فما الفرق بينهما؟ الأول يقوده اقتصاده إلى ديار السعادة والثاني يجره إسرافه إلى هاوية الشقاء.

الدين

لا إغراق ولا مغالاة ولا مبالغة إن قلنا إن الدين ذل وعبودية، أوليس العار والاستعارة من أصل واحد؟

قال هوراس كريلي (وهو رجل اشترى سعة الاختبار بما ضايقه الدهر): لا الجوع المضور، ولا القر القارس، ولا رثاثة الثوب، ولا الأشغال الشاقة، ولا التخوين، ولا التعنيف التعسفي، أشق على النفس احتمالا، من عبودية الدين! فإذا كنت لا تملك إلا شروى نقير، فعش ومت على ذلك النقير، خير لك من أن تبيت مدينا. وقال بلوتارك: إذا كان هيكل أرطميس في أفسس يفتح أبوابه للمتلجئين إليه هربا من وجه دائنيهم، فإن هياكل الاقتصاد في كل قطر من أقطار المسكونة، ترحب ببنيها المقتصدين، وتحلهم من رحبها على رغد العيش ونضارته وعرض الجاه وبسطته.

فلا تعر ولا تستعر ولا تستدن ولا تدن. لأن من تدينه وإن ضمدت ما جرحته الحاجة، فقد أوجدت في قلبه حزازة، تنكأها كلما تقاضيته الدين. هب ما تهب وأعط ما تعطي غير آسف عليه ولا راج استرجاعه. (وهذا الكلام لا يتناول المعاملات التجارية).

تحصيل المال

إذا ما سماء التوفيق أمطرتك رذاذا بادئ بدء، فلا تيأس، بل ثابر على زرع بذور العمل، وأمل بالاستغلال والاستثمار. وإذا اتفق أن تدفقت عليك سيول الدراهم تدفقا عقيب بارقة أمل، فلا تبطرنك البحبوحة التي تراك فيها، واذكر ما كنت عليه من قبلها، واحسب حسابًا لما قد تصير إليه من بعدها. وجملة من التجار أسكرهم ربحهم في أول الأمر، فباتوا يترنحون طربا، وأصبحوا يتأففون تعبا.

الغنى والاهتمام له

لا تستبطئن الغنى ولا تستعجل إليه، فإن الأمور مرهونة بأوقاتها، وقد قال رسكن: لا تحكم الثمن بالصورة بل دع الصورة تتحكم بالثمن ولا تبعها مغترا بالربح العاجل بل قدر لها قيمة الآجل.

ولا تعلق نفسك بحب المال. فمع أن المتاح لهم أن يجمعوا الأموال الطائلة وينموا الثروات العظيمة نفر قليل، فلا شك أن كل إنسان بواسطة جده واجتهاده وتدبيره واقتصاده، يمكنه التعيش والارتزاق.

وكثيرا ما نسمع عن غنى جاء عن طريق غير شريفة، أما الفقر فهو ما خلا النادر النادر لا معرة فيه ولا منقصة. والفقير ليس ذا القليل المكتفي بما عنده، بل الفقير من يحتاج إلى سواه. وما الافتقار لغة إلا الاحتياج بعينه.

إن الطبيعة لتعطي أكثر مما تأخذ. إنما الترف والرفاه والبذخ، هذه باهظة الكلفة لا مشاحة. وحسب قول فرنكلن إن ما يلزم لإشباع شهوة من الشهوات، أو للتمتع بملذة من الملاذ المألوفة بين أولي البذخ والبطر، كاف بل أكثر من كاف لإعالة ولدين، أما الحاجيات الضرورية فالطبيعة توفرها لكل مخلوق.

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لا تدع الآمال تطوح بك كل مطوح، بل احسب لزيغ العالم واختلاله حسابا. وإن أكبر التجار قد تزل بهم قدم السعي فيرون أنفسهم حيث لا يريدون. والعصمة لله عزت وحدته.

نتعلم في جملة ما نتعلم أن 2 و2 أربعة ولكن أليس العددان اثنين وعشرين أيضا؟ فكذلك أفكار الإنسان قد تكون منسقة تنسيقا عموديا، فإذا برزت من حيز دماغه إلى أثير العالم، انقلبت وتنسقت أفقيا، وربما كان العكس. وهو معلوم أن لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة. فالحزم الحزم والصبر الصبر.

كل إنسان تاجر

بمعنى أن عليه واجبات ليؤديها ومصاريف ليتدبرها، وبيتًا ليقوم بأوده. ولرب طفيف من الأمور يشاكل أعظمها أهمية.

رأسمال التاجر

لا يتوقف النجاح في التجارة على فرط الذكاء وكثرة المواهب بل على سلامة الذوق وعلى الاعتناء في العمل والمواظبة عليه. والعادات التجارية

كالمواظبة، والتدقيق، وحسن معاملة الشركاء، وغيرها، هي كسائر العادات مما ينغرس في الطبع وينمو بالمزاولة والممارسة.

قاعدة ذهبية

عين لكل من الأشياء موضعه»
وضعه فيه بإتقان وترتيب
حتى إذا ما طلبت الشيء في عجل
«تلقاه حالا ولا تبلى بتعذيب

المال والعلم

أقوال أولي الألباب من أرسطو إلى كارليل متضاربة متباينة بشأن مقام التجار في الهيئة الاجتماعية. فمنهم من يجلهم ويعتبرهم، ومنهم من ينظر إليهم غير هذا النظر.

على أن الأعمال التجارية، أبدًا قابلة الترادف مع غيرها. وكثيرون من ماسكي الدفاتر مسكوا الأقلام، وأفادوا العالم بما حرروا وكتبوا، كما أفادوا أنفسهم بما قيدوا وحسبوا.

الفقر والسعادة قد يجتمعان

جملة من أعاظم الرجال وسعدائهم عاشوا بالتقتير على بساط الفاقة والمسكنة. ومنهم وردسورث الشاعر الكبير وشقيقته اللذان قضيا سنوات متوالية، لا يصرفان أكثر من ثلاثين شلنًا في الأسبوع. وإني أعتقد أن تلك كانت من أسعد سني حياتهما.

الغنى الحقيقي

إذا لم يكن نصيبك اليسر المالي، وفزت بسهم من المحبة والإخلاص وصفاء النفس، وعشت مع حبيب تحن إليه ويحن إليك، ولو في كوخ صغير، خلي البال مرتاح الضمير، فذلك كل العالم لك، ويا نعم نصيبك من نصيب.

الإنسان والفلوس

إنها لعادة تعودناها، أن نقدر المال فوق قدره، وأن نبخس كثيرا مما سواه حقه. فلنتأمل!

إذا أراد ذو مال أن يتمتع بصحة الجسم والعافية -وأن الإنسان لمن طبعه أن يؤثر دقيقة من الحياة ولو في ساعة النزع على كل أمواله وعقاراته- إذا أراد غني ذلك، وحقه أن يريد، فعليه أن يعيش من حيث مأكوله ومشروبه كفقير لا يتناول إلا الضروري اللازم.

وإن المآكل المغذية لسهلة المنال، وقليلة الكلفة، وحبذا الاقتصار عليها.

ولماذا تتوق أنفسنا إلى المال وتتعشقه بل تتعبده، مع أننا إذا طلبنا اللذة من صفحات الكتب ونفثات الأقلام كان ذلك من أيسر المطالب. وهو بالحقيقة فقير فقير من لا يتيسر له أن يشتري من الكتب قدر ما يقدر أن يقرأ! ولكن ذلك فرض نادر الوقوع. فبالقليل من المال نشتري ما نستنفد الكثير من الوقت بمطالعته.

وهل ترانا نشتري بالدراهم صحة أبدان، وذكاء عقول، وإخلاص أصدقاء، وجمال خلق وخلق، وسعادة عائلية؟! وكم من غني دخل القبر غير مأسوف عليه، وفقير شيعته الزفرات، وذكرته التحسرات، وسقت قبره غيوث الترحمات.

محبة المال أسر وذل

كل القيود لا تطاق، ولا فرق بين القيد المصوغ من الذهب الإبريز، والقيد القمل. والمال يثقل صاحبه هموما، لا تقل عن هموم الفاقة والعوز. ومن الأغنياء من هم أرقاء مالهم لا أربابه.

فالمال لا يكون مجلبة لأسباب الهناء، إلا إذا كان صاحبه فاهما لمعاني الحياة حق الفهم.

وإليك أقوال بعض مفسري أسرار الحياة:

قال سعدي الشاعر الفارسي:

لا ناقة عندي أثقل متنها

كلا ولا حمل يثقل كاهلي
لا عبد عندي أستبد بأمره
كلا ولا أمري بكلمة قاتلي
أحيا ولا أهتم للآتي ولا
أدعو المواضي من ملم نوازل
أتنفس الصعداء مقتنعا بما
عندي وموتي عاجلي أو آجلي

وقال شاعرنا شكسبير:

الأغنياء لدى الردى فقراء
والكل في حكم المنون سواء
ولأنت يا هذا الغني محمل
حمل النضار تسير كيف تشاء
حتى إذا جئت القبور وقد برى
منك المناكب في المسير عناء
يضع الردى عنك الحمال كبغلة
تعبت وما غير الشعير جزاء

وقال غاي:

ولماذا نفني الحياة بجمع الـ
مال جمعا مشتتا لقوانا
ما تراه يجدي إذا الداء فينا
حل هلا تراه يمسي دوانا
أم تراه يرشي ويغري ردانا
وهو عدل فلا يجيء ورانا

وقال سينكا الفيلسوف الروماني: الفقير تعوزه أشياء كثيرة فيطلبها وقل ألا يصيبها، أما الطماع فيطلب كل شيء ويرى نفسه لا يصيب شيئا.

وقال فيلسوفنا بايكون: السعي المستمر في طلب المال، قد يشغل ذوي المناصب الرفيعة وذوي المقاصد النبيلة عن مهماتهم، لدرجة التقاعد عن واجباتهم، فبئسه إذ ذاك من سعي.

المال قوة

إذا صرف المال في سبله اللائقة كان قوة عظيمة، فهو بعبارة إفرنسي فطن، ملك الملوك، كيف لا وهو الواسطة بيننا وبين مطالبنا من تبديل هواء، واقتناء كتب، وحضور حفلات، وركوب أسفار، وزيارة أمصار، أو مساعدة صديق أعثره الدهر، أو تفريج كرب عمن ضاقت به الحيل، إلى آخر ما هنالك من الأمنيات والرغائب.

البخيل

هو المولع بالمال لأنه مال ولوع الشاعر بالزهرة لأنها زهرة. إلا أن البخيل يسرف في محبته لنقوده ولا يميل عنها إلى سواها، ويا لبعد الشبه بينه وبين الشاعر الحقيقي، فإنه يحب كل جميل.

عرق الجبين ودم القربى

إن ما تجده يمينك ويغسله ماء جبينك من المال لهو ملكك بدون نزاع، أما ما ينتقل إلى يدك بمجرد انتقال من ترث فهو لك ولغيرك ولا فضل لك فيه.

وإليك ما نقش على ضريح أحد الكبار الأغنياء عبرة وذكرى:

إن الذي أحسنت في صرفه
باق وهذا مالي الخالد
أما الذي بذرته فغدا
في حكم مال ما له واجد
وكل ما أبقيته ذاهبا
إلى ضريحي أنني فاقد

الفصل الرابع

«تجديد القوى»

بالرياضة البدنية والتنزه والراحة

معاذ الله أن نحسب جعلنا قسما معينا من وقتنا للألعاب المروضة لأبداننا، من باب المجازفة بساعات الحياة المعدودات، فإن الألعاب التي بمزاولتها نحرك أجسامنا ونمرن عضلاتنا الرئيسية كعضلات الصدر والمعدة وغيرهما لضرورية لنا، بإزاء تعاطينا الأعمال التي من شأنها عدم استعمال تلك العضلات، وحقها أن تستعمل، وإلا تأخرت عن أداء واجباتها والقيام بوظائفها.

الألعاب

والألعاب فضلا عن كونها تحفظ لمدمنها صحته وعافيته -وكفى بصفتها هذه حاملًا لنا على الإقبال عليها- أجل فضلًا عن هذا أنها لمعروفة بما تخلق في مزاوليها من ذوي الأعمال الخطيرة من الرغبة في العمل. ناهيك بما يكتسب الأحداث في ساحاتها من درس أخلاق زملائهم ورفقائهم وملاعبيهم، كائنين من كانوا، وبما تخلقه فيهم من مبادئ الشجاعة والكرم والصفح والتسامح وملازمة المرء حده وقيامه على واجباته، وعمله على إحقاق حقه، إلى غير ذلك مما يكاد لا يصدقه السامع لأول وهلة، إذا كان ممن يجهلون ماهيات هذه الأمور وكيفياتها. نعم أكرر القول وأعيد، إن في الألعاب لفوائد علمية وأخلاقية وأدبية طبعت على ساحات اللعب، وليست لتقتبس من صفحات الكتب.

إنما... لتكن الألعاب مما نأتيه من حين إلى آخر، لا مما نقف عليه الحياة.

الصيد

والصيد لذة طالما اتخذها الملوك ديدنا وانعكفوا عليها كل انعكاف. وليس من تاريخ أو رواية يخلو من فقرات عن حملات صيد وصيادين. ولا بدع، فأجدادنا الأقدمون كانوا يعولون على مقدرتهم وبراعتهم في الاصطياد في تحصيل قوتهم، قبل أن صرنا نعمد إليه من باب ترويح النفس وشرح الصدر،

بالتوغل في الغابات وتجشم الأوعار والتنقل على الشواطئ، للفتك بحيوانات البر والبحر والاستبداد بحياتها، اعتزازًا بالسلطة الممنوحة للإنسان. والرياضة واللذة بل قل السعادة التي يفوز بها الصيادون مما لا سبيل إلى إنكاره. والصيد بحد ذاته، نعمه من منفس لكرب النفس، ومن مورد ينهل منافعه كل محتاج إلى تقوية جسمه، واستبقاء رونقه وحيويته. ولكن النفس تواقة إلى يوم سيصل إليه التمدن الحقيقي، يوم الرفق بكل ذي حياة، والتمتع بلذة استحياء الحيوان، عوضا عن قتله.

الماء والهواء

من بركات الطبيعة الماء والهواء وهاك وصفهما:

زلال الماء في النبع المعين
يبرد مهجتي ويروق عيني
فأذكره وأعشقه وأهوى
ترقرقه الذي يحكي أنيني

***

هو الهواء وهل نسلوه وا عجبا
وهو الذي من سلاه صاح واحربا
نحيا على فضله طول الحياة ولا
نريد عن فضله مالا ولا ذهبا
وهو الكريم الذي يعطي وليس يرى
يعطيك رقته إن آب أو ذهبا
وهو الحمول لريا الزهر ينقله
من الحقول إلينا كلما اقتربا
وهو المرقص للأغصان يسكرها
من راحتيه فتلفى تنحني طربا
وهو المعين إذا جاء الشراع وقد
أعيا المجذف في تجذيفه تعبا

بل الرسول لأهل الحب ينقل ما
قد لا يفسر إما أودع الكتبا
بل النقول إلى الآذان ما نطقت
به المناطق شدوا كان أم لجبا
وما تغرده الأطيار إن صدحت
وما يوقعه النقار إن لعبا
بل المخفف يوم الحر وطأته
حتى يبيت عليلا إذ يهب صبا
لولاه ما ارتفعت زرقاء قبتنا
ولا تلظت على آفاقها لهبا
لولاه ما لثم الورد الندي ندى
ولا ترقرق ماء صافيا عذبا

الطقس

كثيرا ما نقول: هذا طقس جميل وهذا طقس غير جميل. والحقيقة أن لا طقس غير جميل للإنسان لو درى. إذ ربما كان انقطاع الأمطار أو انهمار السيول علة لتذمر الفلاح. أما الإنسان كإنسان، فالحر الشديد والبرد القارس كسائر حالات الجو، كل يفيد جسمه وروحه بمزيته الخاصة. فعلينا أن نلبس لكل حالة لبوسها، حتى إذا فعلنا كنا للطبيعة على كل حال من الشاكرين.

الراحة

الراحة غير الكسل، فهي محبوبة وهو مكروه، ولا أحب من الارتماء على بساط الأعشاب الخضراء، تحت شجرة وارفة الأفياء، ومعاينة العصافير المزقزفة بالإصغاء، والإصغاء لشجي ألحان الماء المتسلسل على الحصباء، ورعي قطعان الغيوم السارحة في عرض السماء، أجل! لا أحب ولا أجمل من ترويح النفس من العناء، بمغازلة الطبيعة الحسناء!

الرياضة والهواء النقي

يقول المثل من اختلت نظامات معدته وإدارة أعضائه الداخلية فظهر الجواد أصلح مصلح لحاله، والهواء النقي يسد منه كل خلل.

ويخيل لي أنه من ألزم اللزوميات، أن ندوس أعتاب البيوت خروجًا في الهواء الرطب العطر نحو الساعتين على الأقل في كل يوم. ونفع الهواء البليل، اللطيف، العليل، تشبيها لا غير، يشمل العقل والجسم جميعًا. فكأن الطبيعة والهواء رسولها وساعيها، لا تزال تدعونا إلى هياكلها لتبهرنا بسنائها، وتشعرنا بعظمتها، وتكاشفنا أسرارها.

كيف نعاشر الطبيعة؟

نتعلم من الأرض والجلد، والأحراج والحقول، والبحيرات والأنهار، والجبال، والأبحار، فوق ما نتعلمه من معلمينا وكتبنا. والفائدة كل الفائدة، واللذة كل اللذة، في الابتعاد عن غوغاء المدينة وضجة شوارعها وقصد القرى الحقيرة المنفردة، أو في ركوب قارب تتولى أنت أمر مجاذيفه، أو في التجول في الرياض والغابات، واستحباب الأزهار، وضمها طاقات طاقات، أو في الانحدار إلى الأودية وجمع المحجرات، أو في التنقل على شواطئ البحر المرغي المزبد والتقاط ما يبهجك ويروقك من الأصداف والنباتات المائية. وزبدة القول أن استنشاق نقي الهواء، وتحريك الأعضاء في وقت واحد، يحفظان الصحة لصاحبها ويتكرمان بها على فاقدها من جهة، وينزهان الفكر، وينفسان الكرب، ويتركان الإنسان خلوًا من كل هم، مستعدًّا لكل مهمة، من جهة أخرى. إن الطبيعة نبع يفيض بركات!

مجمل

من جعل المسرات والتنزه شغله الشاغل، وتخلى عن الأشغال والأعمال عد محبا لذاته، بل غبيا لا يفقه معنى الحياة الحقيقي. ومن عجز عن إبهاج نفسه وتسليتها والترويح عنها، فلا يتظلم، ولينصف نفسه. إذ إن هذا الحق له وعليه أن يناله.

البساط المسحور

جاء في كتاب ألف ليلة وليلة، أن بساطا مسحورا كان يحمل القاعد عليه حيثما شاء. ومجالس القطار والمركبات والبواخر، وسواها من السيارات النقالة، هي لنا بمثابة ذلك البساط الخرافي تنقلنا إلى حيث نشاء، ومن حيث نشاء. وبقدر ما نرى ونشاهد ونعاين، تزيد أفكارنا، وتكثر وتتنوع تصوراتنا وتذكاراتنا وتخيلاتنا، وكم من تصورات وتخيلات وتذكارات هي مصادر السعادة بعينها. وقد قيل إن اللذة الحقيقية واحدة وهي لذة الفكر.

لذة الحديث

ومما تتزين به الصفحات وتلهج به الألسن هذه العبارة: فلان حديثه لاذ، وما ناسقها مرادا وتركيبا. ويروى عن جونسن، أحد رجالنا الذين نفتخر بهم، أنه كان إذا أراد وصف وليمة الأمس، بزهائها ورونقها وفخفختها، وفاخر ألوان طعامها وأنواع مشروباتها، إلى غير ذلك مما توصف به الولائم والمآدب الكبيرة الشائقة، اقتصر على مثل هذا القول: «ودارت بين المدعوين أحاديث لذيذة».

وقليلة هي المواهب التي يتفاوت الناس باعتبارها أكثر مما يتفاوتون ويختلفون باعتبار لطف الكلام ورقة الحديث. وإني أعرف كثيرًا من الناس المعتزين والمنظور إليهم، من إذا تكلموا أبدعوا وأفادوا وأجادوا، ولكنك لا تفوز منهم بكلمة، إلا إذا ابتززتها ابتزازًا، فإنهم لعلة بخلاء يضنون، أو على الأقل لا يجودون، إلا إذا استجدوا. والمجيد في الكلام على الرحب والسعة أينما حل. وهذا الفن ككل فن لا يبرع فيه إلا من مارسه وزاوله.

قال السر وليم تمبل: أسرار الإجادة في الكلام أربعة؛ أولها وأهمها جميعا: الصدق، وثانيها: سلامة الذوق، وثالثها: حسن الطبع، ورابعها: البراعة والتلاعب بأساليب التعبير.

وكثيرون استفادوا وتعلموا من مجرد ما يقولون ويسمعون. قال اللورد بايكون: من يسأل كثيرا يتعلم كثيرا ويرضى ويسر كثيرا، بشرط أن يعرف من يسأل وماذا يسأله. فيوجه السؤال العلمي إلى رب العلم، والسياسي للسياسي، والتجاري للتاجر. وسببه أن كل ضليع من موضوع، يحب أن يظهر

ما عنده، ويرتاح إلى إفادة من يرجو الاستفادة منه. ولا أحكم من أخذ الحقائق من أربابها.

الشعور بجمال الجميل

أعطانا الله حواس السمع والبصر واللمس وغيرها من مثلها، وكذلك خلق فينا محبة الجمال بحيث تنبسط أنفسنا لرؤيا كل جميل، وتنقبض لوقوع النظر على كل قبيح من كل نوع على الإطلاق. وأخالنا لا نهذب الشعور في أولادنا وننميه كما ينبغي بل قد نعمل على إضعافه وإماتته في أنفسنا، ويا للجهل إذ إنه من جملة ما يحلي الحياة ويزينها، ويخفف من مرارتها ويحليها. وأي سرور طاهر وشريف سهل المنال دائم الوجود مثل هذا؟

ولرب حي فيه هذا الشعور لا يفتأ يسبح المبدع العظيم بتأمله في صنع يديه. تبهجه وتسره خمائل الأشجار، وحفيف الأوراق، وشهي الأثمار، وأنيق الأزهار، وزرقة الجلد وصفاؤه، وغيومه وسحابه، وزبد أمواج البحر، وتجعدات سطح البحيرة، وانسياب الأنهار بين الجبال، وانسدال الظل الظليل على الأعشاب، والهلال، والبدر، والزهر، والكواكب، والنجوم، فيتمتع بها وبغيرها من آيات جمال الطبيعة ومحاسنها.

ورب آخر تضيق به الدنيا على اتساعها، ويحسبها خاوية خالية، وهي لو شعر ودرى ملأى. وعبثا تغرد له العصافير، وتصفق الأوراق، وترقص الأغصان، وتنضج الأثمار، وتتفتح أكمام الأزهار، وتجري الأنهار، ويهيج البحر، وتسجو البحيرة، وتشرق الشمس، ويطلع القمر، وتبدو النجوم، عبثا عبثا تفعل له الطبيعة كل هذا، فإنها لا تسر له خاطرا ولا تشرح له صدرا.

ومن يشيع مليكة النهار إذا مال الميزان بنواظره، ولا يشعر أن مثل هذا لسان حاله.

سبحوا الله لاقتراب المساء
حين تنأى ذات البها والسناء
فهي تطوي سبيل هذي السماء
لتوافي أبواب تلك السماء

وجميل جميل هو الأفق ساعة الغروب، بل عجيب ورائع جماله، حتى إنه قد يخيل لنا أن تلك هي أبواب السماء التي نتوق إليها.

المسرات الحقيقية

سئل سقراط أي هي المسرات الحقيقية، فأجاب: هي تلك المعكوسة عن الألوان الجميلة، والمنتشرة من الروائح الطيبة، والممتزجة بالأنغام الرخيمة، وبكلمة كل ما لا نتألم لفقده وغيابه إذا غاب وفقد، وما نحس بلذة وجوده إذا وجد. ثم استدرك وقال: ولكن أعظم مما تدركه الحواس وتلتذ به، وأعلى قيمة وأسمى، الحكمة والمعرفة وملاذ العقل الناجمة عن قوة الذهن والذاكرة والحافظة، ملاذ الفهم والإدراك والتعليل.

برنامج المسرات

ومن الأشياء والأمور السارة على وجه البسيطة هذه: القربى، والصداقة، والمحادثة، والكتب، والموسيقى، والشعر، والتصوير، وغيرها من الفنون الجميلة، والرياضة، والراحة، وتبدلات أطوار الطبيعة من نهار وليل، ونقاء جو، وهبوب عواصف، ونحوها. ومنها أيضًا الأحراج، والحقول، والأنهر، والبحيرات، والبحار، والحيوانات، والأشجار، والأزهار، والأوراق، والفواكه، والأثمار، إلى ما لا يعد ولا يحصى لو قدرنا كل شيء قدره.

النفس والجسد

النفس والجسد يؤلفان إنسانًا كاملًا بقدر ما تأمر النفس بالمعروف وتحكم بالعدل والحكمة، وتسهر على حركاتها وسكناتها، وبقدر ما ترفق برفيقها الجسم، وتنيله حقه كائنا ما يكون، وحقه فقط لا أكثر.

ولكن إذا استتب الحكم للجسد، فاستوزر الشهوات، فأول مظلمة يجريها إفساد الفهم، ويلي ذلك إذلال الإرادة، وضعضعة قوة الاختيار، وعند ذلك ما الجسد والنفس بصديقين صدوقين، ولا برفيقين رفيقين، فيعيش صاحبهما ويموت، أحمق تاعسًا.

فبكلمة، إذا لم تكن النفس حاكمة، استحالت سلامة صحبتها للجسد. فهي أعلى جزأي المرء وأسماهما، ولها يجب أن تكون اليد العليا والأمر النافذ.

الفصل الخامس

«الصحة»

النفس والجسد

قلنا الإنسان نفس وجسم. وبديهي عندنا أن الروحي أسمى من المادي. على أن النفس، وهي غير منظورة، تتجلى في حركات الجسم وسكناته، والجسم أشبه بهيكل لها. ومن الأمثال السائرة: الوجه مرآة النفس. وغيره مما يدل ذات الدلالة.

الفرض المقدس

الصحة فضيلة. والاعتناء بأمور الصحة واجب مقدس. ومن ينظر في طقوس أي الديانات، يجد أن كثيرًا من الفروض المرسومة تحت عنوان الواجبات الدينية، ليس إلا صحيًّا محضًا وإن كان يؤول إلى نتائج روحية حسنة، وسبحان الله الموحي إلى أنبيائه كل آية.

اليونان

تهذيب العقل وتهذيب الجسم عند اليونان الأقدمين كانا على درجة واحدة من الأهمية. والتماثيل الفائقة الجمال مما صنعته أيادي نحاتيهم، ولم تقو عليه أنياب الزمان، تكاد تنطق بهذا الأثر عنهم. بل ومن أمثالهم التي لا تزال تدور على الألسنة «العقل السليم في الجسم السليم». وإذا سلم العقل، سلمت النية، وصحت التصرفات، وجاءت خالصة من كل شائبة.

النظافة

يقول المثل القديم: النظافة من الإيمان. وأبحاث العلم الحديثة تسفر عن وجه هذه الحقيقة وتؤيدها، وتجلو أسبابها، وتزيل كل شك وريب. كيف لا وقد اتضح لنا تمام الاتضاح، أن أغلب الأمراض العضالة القتالة، لا تتولد جراثيمها تولدًا خليًّا، بل إن تلك الجراثيم هي حييوينات صغيرة لا تنظر بالعين المجردة، تستضيف جسم البخيل على جسمه بالتنظيف والاعتناء، وتحل عليه ضيوفا لا

أثقل منها. ومن هذه الأمراض الهواء الأصفر والجدري الذريعة الفتك. والنظافة يجب أن تشمل أجسامنا، ومساكننا، وملابسنا، ومشروبنا، ومأكولنا، والهواء الذي نتنفسه جميعًا.

جسم الإنسان

هو عجيبة العجائب. فالجلد مثلا، وهو اللباس الطبيعي لما تحته من الأعضاء، نسيج من العروق والشرايين التي تطول الأميال العديدة إذا انسلت، المتخلل خيوطه هذه ملايين من الخلايا، هذا وحده يقضي عجبنا إذا ذكرنا أنه دائم التجدد في كل دقيقة وثانية. وهو ككل ملبوس يجب أن يغسل ويطهر، ويا للعجب، كم من الناس لا يعبأون إلا بظواهر الأمور. تراهم كثيري الاهتمام والاعتناء بتدريج الشعور والغرر البادية للعيان، وقليلي الالتفات أو عديميه إلى ما تستره الأثواب، التي يغلب أن تكون غاية في الزينة.

آفة من آفات الجسم

إهمال استعمال أعضائه، ولا سيما الرئيسية منها. وقد مر بنا الكلام على ذلك.

ضربة ولعنة

هما التنعم والتلذذ بالمآكل والمشارب التي تسمى فاخرة، وإن هي إلا سموم قتالة.

المسكرات

بئس التشبيه تشبيه جداول المياه الصافية، المنبثقة من صدور الجبال، الجارية في بطون الأودية، بكل هدوء وسكينة، إلا إذا سقطت من على ظهور الصخور، فأسمعت صراخها، أو تعرضت لها الحصى، فصعدت أناتها، قلت، بئس تشبيه هذه الجداول البريئة الطاهرة، بالحيات والأفاعي المنسابة! إذ أين سمها وفتكها بشاربي زلالها وعذوبتها، من سموم المسكرات وفتكها، الذي ليس بعده من فتك؟

فالمسكرات سموم. ولا حاجة بنا إلى التحذير مما عرف كذلك لقوم يعقلون.

الخمرة

جذابة إذ تستميل عيوننا
أنى تروق بكاسها وترقرق
مكارة إذ تستميل قلوبنا
حتى تبيت لحسنها تتعشق
خداعة إذ كم تغش نفوسنا
حتى تصير لما تقول تصدق
سراقة إذ كم تضل عقولنا
أوبعد عقلك من متاع يسرق؟

***

فليكرع الماء النقاخ حكيمنا
وليرشفن السلسبيل الأحمق

مقدار ما نأكل

إذا كانت أضرار المسكرات فاحشة فاضحة، فأضرار النهم والجشع شر أشد ضررا. وهذا الشر إن لم يكن كغيره مجلبة للعار والاحتقار، فهو ككل شر، يجب تجنبه والابتعاد عنه، لأن كثيرين يقضون فريسة له. والناس لا يزالون يزيدون استخفافا بأمره.

الاعتدال! الاعتدال في كل شيء، تقول الطبيعة. والاعتدال ليس ضعفا كما يزعم المموهون والمموه عليهم، بل هو القوة بعينها. لأن المعتدل في تصرفاته، هو القوي الإرادة، الملازم للصراط المستقيم، لا يحوله عنه ميل ولا هوى.

فلا تطل الجلوس إلى المائدة، ولا تلتهم التهاما. ويقال، إن الأفضل في غالب الأحيان، أن ينهض الآكل على جوع.

وإنه لغني عن البيان، أن العقل لا يقوم بأعماله تمام القيام آن امتلاء المعدة بالطعام. ولما كان ذلك فكم نرى أصحاب الأشغال العقلية، لا يستأنفونها إلا بعد شيء من الراحة.

ولنأكل لنعيش، ولا نعش لنأكل.

«تطويل الوقعات» تفسيره في قاموس الطبيعة «تقصير الحياة».

ناهيك بما يرافق خلو المعدة وارتياحها من الراحة العمومية للجسد، ومن الخفة في الروح، والرشاقة في الحركات، إلى غير ذلك. أما حشوها وتحميلها فوق طاقتها، فمعناه انقباض نفس، وارتباك، وحيرة، وسويداء، وضيقة صدر. والمصابون بعلة سوء الهضم في الدنيا هم وحدهم النصف، والمصابون بسائر الأوجاع، هم النصف الآخر.

الصحة هي الاعتدال

قيل الصحة مجموع عادات حسنة واعتدال في الأكل والشرب. وبالإكثار من الرياضة والخروج في الهواء الطلق، والاستعمال للماء البارد، والاعتدال في الطعام، يمكن لأكثرنا إن لم يكن كلنا أن نتمتع بهذا الشعور المجيد، الشعور بالنشاط والقوة، وأن نرتع من خريف شيخوختنا في ربيع دائم.

الصحة وحالة النفس

إن الحقد والبغض والحزن والخوف لمن جملة المؤثرات الفعالة على الصحة، بل على حيوية الجسم كافة، كما أن الابتهاج، وسلامة الضمير، وخلو الفكر، مما يزيد الجسم صحة، والعمر طولا، والحياة سعادة.

الصحة والعمل

نادر جدا أن نسمع بصاحب همة كان مجرد اجتهاده السبب الوحيد في صرم حياته. وذلك لأن العمل والشغل من اللوازم الطبيعية بخلاف الاهتمام والحصر والإجهاد، فإن هذه وأمثالها متلفة للتركيب الجسماني.

ومن الحقائق الراهنة أن أكثر قصيري الأعمار هم الكسالى البطالون، الذين إذا عملوا فعلى إشباع شهواتهم، وإذا انطلقوا فمنقادين لأهوائهم.

الأرق

إذا استولى عليك الأرق، فلا تجزع له. بل إنك إذا حسبته عدوا يريد بك شرا، فالجزع والخوف منه، والتحسب لعواقبه، مما يمكنه منك، وينفذ بغيته فيك. فالأرق لا يغلب إلا باللطف والتسليم، وعبثا تقاومه. ونصيحتي لك أن اقصد إلى أماكن النزهة والابتهاج، واعمد إلى المسرات البريئة، واشغل قلبك بالأفكار المفرحة، السارة الطاهرة، حتى إذا جئت الفراش، كانت هي، لا المقلقة والشواغل المحزنة، ما يسهدك ويمنع عنك ملاك النوم.

والأرق ما قتل أحدا. والخطر الوحيد في أمره، الالتجاء إلى الأدوية والعقاقير المنومة. فلتكن هذه آخر حيلة تلجأ إليها.

والنوم بركة عظيمة لا يعرف قيمتها إلا من عدمها.

ومعدل الوقت الضروري اللازم يتراوح بين الست والثماني ساعات يوميا، وخيره ما ابتدأ باكرا وانتهى باكرا.

قد يكون الفكر مصدر العلل

كثيرا ما تكون العلل الجسمية، راجعة إلى الفكر أو النفس بأسبابها، والصحة ليست وسيلة من وسائل السعادة فقط، بل هي ذريعة ضرورية لاتقاء أتعاب الأعمال، والقيام بأعبائها. وفي هذه الصفة تنحصر قيمتها الحقيقية. وعليه فالمجازفة بقوة الجسم وحيويته، وعدم المبالاة بأمر الصحة، جريمة لا تغتفر.

الإجهاد

إجهاد النفس في العمل بقصد الإسراع فيه، مما يعرض المجهد إلى أضرار عديدة، أقلها عدم إحكامه وإتقانه لعمله، فضلا عن إنهاك الجهاز العصبي، ووخيمة هي عاقبة هذا الإنهاك.

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء
لا يراه إلا الضعفاء

شتان ما بين معتل تقلبه

أوصابه وبما يضني تعذبه
يرى الحياة شقاء لا هناء بها
ويطلب الموت والأسقام تطلبه
وبين كل صحيح الجسم ترهبه
الأوصاب فهي لعمري ليس تقربه
يرى الحياة هناء لا شقاء بها
يرجو الحياة وهذي لا تخيبه

الفصل السادس

«التهذيب والأمة»

أساطير الأقدمين، وكتب المتأخرين، وكتابات المعاصرين وأقوالهم، كلها مجتمعة على الإقرار بفضل التهذيب، محرضة على إعلاء مناره.

وإليك سلسلة أفكار وأقوال جاءت بهذا الصدد؛ قال أفلاطون: التهذيب أجمل شيء في أحسن إنسان. وقال فولر: التعليم أعظم صدقة يجود بها المحسنون إذا أرادوا مد يد بيضاء إلى المعوزين والفقراء. ومونتاين الفرنساوي يصرح بأن الجهل هو أبو الشرور والجهالة أمها. وقال فيلسوف: القوة بدون معرفة خطر ووبال، ومعها مصنع خيرات ومنافع. وشاعرنا شكسبير يقول:

إن الجهالة لعنة وجهنم

لأولي الجهالة بل هم أهل الجحيم

لكن معرفة الفتى ترقى به

أوج العلاء وداره دار النعيم

عهود العلم في تاريخ المدنية

في العصور الخالية، كانت تقوم الفلاسفة، وتنبغ النوابغ، من آونة إلى أخرى، وتظهر العلم بأجل جلال، وأجلى رونق. إنما لا يفهمن من هذا أن التهذيب رقى معارجه العمرانية رقيا مستمرا بدون عقبات ومشكلات. والحق يقال إن له ثلاثة عهود متداخلة متلاحقة.

فمن عهد كان فيه العلم من ميزات الرجال، محظورا التوسع فيه على النساء، حتى جرى المثل الألماني أن خزانة المرأة هي مكتبتها، وشاع القول الإفرنسي: إن المرأة يجب أن تلزم ما بين الأناجيل الأربعة أو ما بين الجدران الأربعة. وبلغ ذلك التقيد مبلغ أن حسبوا العلم من ميزات الرهبان والكهنة دون سائر أصناف الناس. وسببه أنهم جهلوا قدر العلم وما أدركوا شرف العمل، إذ كانوا ينظرون إلى القارئ الكاتب كمن يحسن به الترفع عن كل عمل يدوي.

حتى إن الدكتور جونسن، مع تضلعه من العلوم ووثوقه من الحقائق كان يقول: لو تعلم كل الناس وتهذبوا فمن يقوم لنا بالأعمال اليدوية؟

ومن عهد آخر، عول فيه على اقتباس اللازم واللازم فقط، من أصول الخط والقراءة والحساب، فكانوا يعلمون تلك المبادئ آتين بالطالب إلى الحد المعين منها، فيوقفونه عنده، حذر أن يؤهل نفسه للاندماج في أهل طبقة أسمى من الطبقة التي ولد فيها. تلك كانت أيام الظلمة والظلم، أيام لم تكن عرفت الحرية ولا المساواة.

أما اليوم، والعلم في عهده الأخير فإننا لا نقول إنه يطلب من الحكومة أن تعمم التعليم الإجباري بين جميع رعاياها -لا نقول هذا فقط، بل نزيد ونطلب منها (ولنا أن نطلب وعليها أن تجيب) أن تعمم التهذيب، تهذيب الناشئة، القائم بتهذيب عواطف الأحداث وأخلاقهم، بحيث يشبون على شريف الخصال، ومستقيم المبادئ، ويصيرون رجال علم وعمل.

التعليم الإجباري

قال أحد ساسة سويسرا: أغلب أولادنا يولدون فقراء، ولكننا لا نتركهم ينشأون ويترعرعون ويعيشون جهلاء. والحمد لله نحن أيضًا قد انزاحت تلك الغشاوة عن بصائرنا، وصرنا نرى أهمية تعليم كل ابن أمير وكل ابن صعلوك من أبناء الوطن.

لماذا؟

ألأن ذلك من الكماليات، ونحن كدولة راقية قد أحرزنا الضروريات، وهذا من جملة الكماليات التي تنقصنا بعد؟ لا لعمري! إذ ليست تربية أطفال اليوم أي رجال الغد، وتثقيف عقولهم، وتهذيب نفوسهم، من الكماليات، بل إنها لمن ألزم اللزوميات. فالعلم أساس العمران، به تقوى أركان الأمة. وكل أمة جاهلة يتهدم بنيانها وتسقط أركانها لا محالة.

ولماذا أيضا؟

لأن سن الشرائع يستدعي علما، علما بالتاريخ وفلسفة الاجتماع وكل العلوم العمرانية، ولأن تنفيذ الشرائع يستدعي تهذيبا يشرب النفوس حب العدل وكره الظلم، حب العفة والنزاهة، واحتقار الهوى والرشوة. ولأن الشعب إذا تعلم وبالأحرى إذا تهذب أحب الحكومة ورعى حرمة قوانينها، كيف لا وإذا قابلنا بين إحصاءات الجرائم وبين إحصاءات المدارس لسنين معينة وجدنا معدل عدد المجرمين يقل بنسبة زيادة عدد المتعلمين.

وسببه أن جزءا زهيدا من الجرائم الفظيعة ينتج عن ميل الإنسان الغريزي إلى الشر، وعن ضعفه لدى التجارب... أما المصدران الكبيران فهما السكر والجهل.

وحسب المدارس منفعة أنها تحفظ الأولاد الميالين إلى التقليد والتشبه من مشاهدة مفاسد ومساوئ أهل البطالة والكسل، المنتشرين في الأزقة وحوشا ضارية تقتل أطفال الإنسانية. حسب المدارس أنها بمجرد تنفيذ قوانيننا تقلل فرص معاشرة طلبتها للأوباش والأجلاف والسكيرين، وبالنتيجة فرص اقتباس عاداتهم. هذا فضلًا عما فيها من التعويد على الحسن والشريف من العادات والمعاقبة على الدنيء السيئ منها.

من هو المهذب؟

أهذا صواب أم خطأ؟

أهذا خير أم شر؟

أهذا جميل أم قبيح؟

إن هذه الأسئلة تقوم في النفس مرارًا كل يوم. إذ الإنسان خلق عاقل يتصرف بعد التفكير. وأعمال الحياة يغلب أن تكون من نوع الصواب والخطأ، أو الخير والشر، أو الجميل والقبيح. فالمهذب هو من يسأل نفسه أحد هذه الأسئلة في حينها، ويجاوب حسنا، ويعمل حسنا إذا لزم العمل.

ماهية التهذيب والغرض منه

الغرض من التهذيب تهيئة المرء لسعادة الحياة وللقيام بعمل يذكر فيها. ومجرد القراءة والكتابة ومعرفة أصول الحساب وصرف اللغة ونحوها ليس كل التهذيب، كما أن السكين والشوكة والملعقة إذا وضعت على المائدة لم تكن الغذاء المطلوب.

فماذا يجب أن نتعلم؟

كثيرة جدًّا هي الأشياء التي يمكن تعلمها، ولكن على الإنسان أن يختار لنفسه بعضا منها فقط مما يوافقه من كل قبيل.

لدينا كتب السلف المحتوية على أفكارهم وأساليب تعبيرهم وعديد مفرداتهم، مما طمسه الزمان فبات في حكم المجهول. فدرس تلك الكتب لا أقول إنه مضر لكل إنسان، ولكنه لا مشاحة غير ضروري لكل إنسان. ذلك لقلة ما يرجى من الفائدة من معرفة مترادفات لا تحصى لكلمات يكفي القليل المألوف منها لأجل التفاهم، ولامتناع هذا مع استعمال الغريب القديم من التراكيب والعبارات. بل رحمة بالوقت! فإننا نصرف في درس اليونانية واللاتينية القديمتين وقتا يجب أن يصرف في غير سبيل.

المعلمون

واجباتهم عظيمة، والمسؤولية المنوطة بأعناقهم ثقيلة، إذ التسلية وتمضية الوقت مع التلامذة أمر بسيط هين، أما تعليمهم، وتربيتهم، وتهذيبهم، وتثقيف أذهانهم، وترقية مداركهم فهذا هو الفرض المقدس المرسوم عليهم.

وربما كان أسهل من سهل على المعلم أن يدرس ويفهم التلميذ مسألة نحوية أو حسابية، أما أن تساعد النفس الحديثة، أن توفر قوتها وتزيدها، أن تبعث في صاحبها روح الأمل والرجاء والاجتهاد، أن تنفخ في رماد الإهمال تلك الجمرات التي استودعته إياها الطبيعة، فتظهر نورًا ونارًا، ذلك ليس بالسهل بل هو عمل عظيم لا يأتيه إلا من حباهم الله بهذه المواهب السامية.

كلمة في التهذيب

على طلبة التهذيب، ولا أقول العلم، أن يتعلموا أشياء وأن ينسوا أخرى على حد قولهم: تعلم السحر ولا تعمل به.

وفي الاختيار بين ما يجب اتباعه وبين ما يجب الإقلاع عنه مما يستفاد من الكتب، تنحصر مقدرة المعلم على تهذيب الطالب، ومقدرة الطالب على تهذيب نفسه.

والتهذيب لا يقصد به إعداد محامين وقواد وأساتذة أو أرباب صناعات وتجارات وعملة مجيدين لا غير، بل إن صفته اللازمة إنماء رجل الغد من طفل اليوم. والتهذيب التام بنظر ملتن هو الذي يؤهلك لإتمام كل الوظائف الشخصية الخصوصية والغيرية العمومية آن الحرب وآن السلم بكل إتقان وحذق وأمانة.

كيف ينال؟

قال جونسن: من يتصور أن الأفكار لا توجد إلا في الكتب، وأن في الكتب كل الأفكار، فما هو إلا متصور. فالأفكار تجري مع الأنهار والمجاري، وتطفو على وجه البحر، وتتكسر على شواطئه، وتسكن التلول والوعور، وتسطع مع نور الشمس، وتنسدل على أجنحة الظلام. الأفكار موجودة في كل أين وآن. وما الطبيعة، إذا اعتزلت الناس، إلا سفر، لله من يقرأه ويفسر آياته.

القراءة - التأمل - المحادثة

قال لوك: ثلاثة هي طرائق التهذيب، تبتدئ الواحدة حيث تنتهي الأخرى.

الأولى: قراءة الكتب وإدراك معانيها.

الثانية: التفكير والتأمل الشخصي في تلك الأفكار والمعاني.

الثالثة: محادثة الغير بها واختبار سقيمها من صحيحها، وسليمها من فاسدها.

الفصل السابع

«تهذيب المرء نفسه»

التهذيب هو التناسب بين القوى والمواهب الإنسانية في الإنماء والترقية.

وهو يبتدئ مع أول أدوار الحياة، ويستمر على تواليها، فالمربية أو الأم تكون أول مهذب للولد، ثم الأب، ثم المعلم، فالاختبار والأيام والتجارب. وكم من آدمي أخرج إلى حيز هذا العالم، ولم يعرف أما ولا أبًا، ولا معلمًا، فاتخذ الوقت الثمين أبًا، والفرصة العزيزة أما، والأيام والظروف إخوانًا وأعوانًا، وعاش ما عاش، وترك هذا العالم شاكرًا حامدًا.

فلكل إنسان على قول جبن، تهذيبان، تهذيب يحدثه فيه الغير، وتهذيب أهم وأجدى، هو يحدثه في نفسه.

الصفحة البيضاء

قيل إن قلب الطفل صحيفة بيضاء، يرسم عليه العلم والاختبار سطورهما، وقلب الشيخ سفر مدون فيه كل ما تعلمه واختبره في حياته.

فأنت أيها الشاب، اعلم أن صدرك ليس ليبقى خاليا فارغا، بل إنه سيمتلئ مع الأيام. وإنما العبرة بنوع ما تختزنه في أحشائه، وتنقشه على لوحة من الخير أو الشر.

المدرسة والعالم

كثيرون من رجال الدهر الذين يتمنى المجتهد أن يقاس ولو بقيراط من عظمتهم، أجل عدد يذكر منهم، عرفوا أيام تلمذتهم بالبلادة وخمول الذهن، وبالطيش وقلة الاكتراث بالدروس. ومن هؤلاء، القائدان ولنكتن ونابليون، والعالم الفلكي إسحاق نيوتن، والروائي الطائر الصيت السر ولتر سكوت، والشاعر المعروف شريدان، والكاتب المر دين سوفت، وغيرهم من طبقتهم.

هذه كلمة نقولها، لا لنطمع الكسول ونشجع الطائش من طلبة المدارس، لا لعمر الحق لا! بل إننا نقولها وبكل شدة وإخلاص، رجاء أن يتمسك بها ذلك

المهتم بدروسه، المستلب الساعات من مخالب الآفات، حبا بتهذيب نفسه واستزادة علمه، رجاء أن يتشجع ويثابر على جده واجتهاده، عالما أنه لا يعدم جزاء في العالم إذا كانت تفوته الجوائز في المدرسة.

ولقد ذكرنا في أول هذه الفصول ما يجب أن يكون للأذكياء الممتازين في المدرسة عبرة وذكرى.

إزالة وهم

يتوهم البعض أن العلم مصدر الشرور، ويعتبرون العيشة الطبيعية أم الفضيلة. وما توهمهم إلا لعدم فرقهم بين حقيقة الجهل وبين البرارة وسلامة القلب. فإنهم يزعمون أن البار سليم القلب صافي النية كالطفل في سريره، على أن الواقع خلاف ما يتوهمون ويزعمون. فإن المرء بعد بلوغه أشده ورشده، إذا سلبته معرفته وجدته في طور الهمجية، لا في دور الطفولة، وكان لك منه وحش ضار بشكل إنسان، هذا لأن العلم هو دليل الإنسان وقائده في هذا العالم، يميل به إلى الخير تارة وعن الشر أخرى.

وخلاصة القول أن العلم للنفس كالبرارة والقداسة والطهارة، اللهم إن لم يشب ويفسد، وقد يجرب السليم ويخبث الطيب.

العلم غرام

من أتيح له في حداثته أن يذوق لذة العلم، لا بدع إن أولع به كل الولوع فيما بعد، فتعشقت نفسه فنا من الفنون الجميلة، أو تعلقت بفرع من الفروع العلمية العمرانية أو الطبيعية.

فهام كل واد من هواه
وأغنى نفسه وحبا سواه

الشباب والمشيب

من جملة الأقوال الإفرنسية الرنانة قول أحدهم:

ليت الشباب حكيم
مثل المشيب الحكيم

ليت المشيب قوي

مثل الشباب القديم

والتهذيب الكامل من شأنه أن يخلق فينا حكمة في الشباب، وأن يحفظ قوة شبابنا إلى المشيب.

مدرسة العالم باهظة القسط

قال فرنكلين: تجارب الأيام ومصائبها ونكباتها مدرسة باهظة القسط، موبقة الكلفة. أما الجهال، والحمق، والخرق، فتأبى عليهم جهالتهم إلا أن يتعلموا فيها، والشقاء ما يستفيدون.

اطلب المعرفة من الكتب، فإن في الكتب حكمة العالم.

رب علم يكون بالنسيان

من أحسن الابتداء

قد يحسن الانتهاء

نعم، صعب علينا أن نتعلم ما نجهل، ولكنه أصعب وأصعب أن نجهل ما تعلمنا، إذا كان مما علمه مضر وجهله أنفع. فلنسهر على تهذيب ناشئتنا وتعليم أولادنا كل السهر، لئلا ينشأ الطفل على اعوجاج في المبادئ والأخلاق، وهيهات أن يقوم اعوجاجه بعد الكبر، آخذين بقول القائل:

«قد ينفع الأدب الأحداث في صغر

وليس ينفع بعد الكبرة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت

ولا يلين إذا قومته الخشب»

فيا أيها المطالع المهذب نفسه، اعمل على استبقاء الأحسن الأفضل فقط مما تقرأه في الكتب أو تجده في الناس أو تتلقاه من أفواههم. ولا تخجل من نفسك أن ترى غيرك أعلم منه وأخبر، إنما إذا رأيت من نفسك القعود عن الاكتساب والاستفادة، وكان لسان حالك غير:

«إذا مر بي يوم ولم أتخذ يدا

«ولم أستفد علما فما ذاك من عمري

.فعند ذلك فاخجل، ولم نفسك ما تشاء

التعليم شيء والتهذيب آخر

التهذيب وهو وكيل الحكمة ونائبها في من تخلت عن صدره الحكمة، لا يقوم بتعبئة الذهن من المفردات والتراكيب أو الحقائق مستقلة منفردة -فإن هذا هو التعليم بعينه. ولكنه يقوم بزرع المبادئ الشريفة السامية في النفس رجاء أن تأتي بالخمسين والستين والمائة ضعفا.

كلمة في العلم

قال كنسلي: العلم قوة. العلم بأسرار الكهربائية واختراع التلغراف يقتصد من الوقت، ومعرفة الكتابة تكفي الإنسان مؤونة المكاتبة أو الانتقال بقصد المخاطبة، وعلم الاقتصاد يوفر الدخل، والعلم بالنواميس الطبيعية والقوانين الصحية معوان على حفظ الجسم وإطالة الحياة.

كلمة إلى طلبة العلم

قال السر فتش: أيام تلمذتي، كنت أدرس الكثير من مسائلي، مكرها ومرغما، لا كمن عرف أن كل ما يتعلمه لغة كان أو تاريخا أو جبرا أو هندسة أو غيرها سيعود عليه ببعض النفع يوما ما.

أما اليوم، بعد أن قطعت مرحلة طويلة من مراحل الحياة، فإنني أنظر إلى الوراء فأرى أن كل فقرة تاريخية، وكل رأي فلسفي، وكل قاعدة لغوية، وكل عملية حسابية، وبكلمة كل ما كنت محمولا على درسه ومطلوبا مني فهمه، قد أفادني بصفته الخاصة في حال من الأحوال، إما في مطالعاتي، أو في معاملاتي، أو في كتاباتي، أو في غير هذه من المجاريات اليومية.

فليعتبرن المتأففون، المتذمرون من درس ما لا يوافق أذواقهم تمام الموافقة.

بل إن تكلف الصعب، وفعل المطلوب لمجرد كونه مطلوبا، يكسب الفاعل قوة يفتقر إليها في أغلب الأحايين، وما تلك إلا قوة الإرادة.

كيف ندرس؟

ارحم الوقت ترحم نفسك.

إذا أردت أن تدرس شيئا، فانصب عليه انصبابا، واجمع كل قواك، قوى عقلك ووجدانك جميعا حوله. فلا يكون القليل إلا وقد درسته كما يجب، وإلا كنت قاتلًا للوقت، خادعا لنفسك. ولا تكن ممن لسان حالهم قول القائل أو مماثله:

«لا تكلفني القراءة أني
مغرم في هوى الغزال النفور
فإذا ما فتحت يومًا كتابًا
طاف طيف الحبيب بين السطور»

الإنسان

وما أعجبه من مخلوق!

يتخذ نفسه مقياسا للعالم والكون بأسرهما. أعظم الجبال علوا وأعظم البحار عمقا يقيسها بأقدامه. وكل العلوم الحسابية، والرياضية التي يتنبأ بها كسوف الشمس وخسوف القمر، ويقدر المسافات الكائنة بين الكواكب والسيارات، ويزن أثقال الأجسام الفلكية القاصية البعد، الهائلة الحجم، كلها مبنية على عدد أصابع يد من يديه.

وما أضعفه من مخلوق!

ما أحقرنا وما أضعفنا بين المخلوقات والكائنات! وكم يتسنى لنا أن نعظم ونقوى. الإنسان سر الأسرار. وهذه مسألة المسائل.

قال باسكال: الإنسان قصبة تحركها الريح، وأضعف شيء في الطبيعة (ولكنه قصبة عاقلة تفكر) فلا يحتاج إلى ذراع الكون بقوتها لتكسره وتحطمه. نقطة ماء تخنقه، وتذيقه حتفه. ولكنه مع كل ضعفه وحقارته، بجانب عظمة هذه العوالم المالئة الفضاء، لأشرف منها وفوقها جميعًا، لأنه يعرف أنه يموت والعالم لا علم له بذاته.

الكمال الإنساني

التأني والتثبت والمحبة والإخلاص، وسلامة العقل وصحة الجسد، هذه هي أهم الصفات التي تقرب البشر من الكمال البشري المطلوب. فمن لا يتأنى ولا يتثبت أموره، أبدا معرض للوقوع في شر التسرع والعجلة في الأحكام والمعازم. ومن أخلى قلبه من المحبة وصدره من الإخلاص، لا يلبث أن يملأهما بحب الذات وحب الذات من الكمالات الحيوانية، والنقائص الإنسانية، فكيف عساه أن يقرب من الكمال الإنساني؟!

الكمال البشري

أقرب الناس من الكمال الممكن، ذلك الذي يحفظ جسمه من غوائل الإفراط والتفريط، بأن يعيش معتدلا شريفا عفيفا، ومن ذهنه خزينة حكمة ومعرفة، جمع شتاتهما من المنقول والمسموع، ومن لا يجول في مخيلته، ولا يخطر في ذاكرته، إلا كل جميل طاهر، ومن ضميره على سلام معه، فلا يخزه توبيخا وتبكيتا. هذا هو المقترب من الكمال، والسعيد السعيد.

الحقيقة بنت البحث

يقول ستيوارت مل، المنطقي الشهير، يجب على طالب التهذيب أن يشعر بأنه حر الفكر، له أن يجاري الغير في معتقداتهم، وله أن يخالفهم فيها. ومن ثم فعليه إذا شك في صحة أمر أن يبحث وينقب جهده ليقف منه على ما يروقه ويقنعه. وعليه أيضا ألا يلقي الكلام على عواهنه، وألا يأخذه من دون روية وإعمال فكرة.

لله في خلقه شؤون

فبعض الأزاهر لا عطر فيه
ولكن بعضا زكي وعاطر

***

فمثل البنفسج إن راح يرنو
إليك بطرف كسير وكاسر

ومثل القرنفل إن قام يزهو
ولاقاك بشرا بخير البشائر
ومثل الورود ملوك الربيع
ومثل الزنابق تلك الطواهر
أكل الأزاهر تحلو لراء
يراها وتشرح منه الخواطر؟

***

كذلك إن بني الناس زهر
يسر، وزهر يسوء البصائر
وإن المهذب زهر لطيف
جميل منير سني وباهر
وغير المهذب زهر ولكـ
ـن إنسان عينك منه لنافر

الفصل الثامن

«المكاتب»

منذ خمسمائة سنة قال أحد كبرائنا الأسقف ريتشرد بري في وصف الكتب ما مؤداه: هي الأساتذة التي تعلمنا بدون عصا ولا قضيب، بدون حدة ولا كلمات خشنة، بدون أجرة ولا مكافأة، تأتيها أنى شئت فلا تجدها نائمة، تستفهمها وتسائلها في ما تهمك معرفته، فلا تضن عنك بما عندها ولا تخفيه عليك، تخطئها وتناقضها، فلا تتبرم منك ولا تحقد عليك. وإذا كنت جاهلًا فلا تضحك منك ولا تسخر بك.

فالمكتبة إذن، هي كل الغنى، ولا شيء يضاهيها أو يساويها. ومن ابتغى الحكمة والحقائق وطلب السعادة، فليعشق الكتب ويولع بالمطالعة.

اليوم

فإذا كان هذا الكلام في محله في تلك الأيام، فما أوقعه اليوم! إذ أين الكتب وانتشارها قبل هذه المدة المديدة، من الكتب وانتشارها في أيامنا الحاضرة؟

ما أرخص الكتب اليوم!

بثمن زجاجة الجعة(2) أو علبة اللفائف(3) تشتري ما قد تقضي شهرا كاملا بمطالعته.

2) البيرة.

3) السجائر.

ما أجمل الكتب اليوم!

نحن اليوم نعتبر زخرفة الكتب ومظهرها الخارجي، فنذهبها ونهتم لنوع ورقها وتجليدها، حتى تجيء لطيفة جميلة خفيفة، بينما في أيام الكاتب المذكور كان الكتاب حملا ينقل.

ما أكثر النفيس من الكتب!

لعصره كان الكثير من آثار الأقدمين لم يكتشف بعد. وبعد عهده كم من كاتب وشاعر وفيلسوف وعالم، كتبوا وألفوا، وكم من علوم استنبطت،

وأخرى قديمة نسقت، كالكيمياء والتاريخ الطبيعي وعلوم طبقات الأرض والحيوان والنبات والفلك، إلخ.

المكاتب والاقتصاد

قال أحدهم: إن لم يكن تعاطي العلم زاد دخلي فإنه لا شك قد عمل على توفيره، لأن انعكافي على المطالعة منعني من تبذير ما تسرب إلى يدي من الدراهم تبذيرًا لا يعود بفائدة.

أما نحن، إذا حضضنا على إنشاء المكاتب، وفتح غرف القراءة وترويج بضاعة القلم والورق، فليس لأن الاقتصاد وحده يصوب لنا هذا الرأي، بل إننا نرمي إلى غاية أسمى وأرفع، هي جعل أبناء وطننا أصدق وطنية، وأتم استعدادا لخدمة الوطن.

المكاتب العمومية

نود أن الحكومة تعدد غرف القراءة والمكاتب العمومية ولا سيما بين ظهراني الطبقتين الوسطى والسفلى من الشعب، لأن ذوي الحرف والمهن البسيطة كالنجار والعامل والحانوتي وأمثالهم لفي أشد الحاجة إلى ما يدفعون به شياطين الملل والضجر. وعندي أن التردد إلى المكاتب، وورود مصادر الأخبار والروايات والمعاني على اختلافها، خير ما يدفع الضجر ويجدد القوى في مثل هؤلاء المجتهدين المعانين أتعاب العمل.

ولا ننسى العملة الذين لا يعرفون إلا آلة من آلات المعمل الكبير الحاوي الألوف منهم، المشتغلين بتلك الآلة إذا اشتغلوا وغيرها لا يعرفون. يخشى على هؤلاء مع مرور الزمن، أن يصيروا هم أنفسهم آلات حية لا أكثر، فلا نفوسهم تسمو ولا عقولهم تترقى وبئست حالتهم هذه من حالة.

على أن ساعات العمل قد أخذت تقل من آونة إلى أخرى، وباتت تتيسر أوقات الفراغ شيئا فشيئا لتلك الطبقة من الناس. ولكن كيف يعوضون عن قلة مخالطتهم للناس إن لم يكن بقراءة الكتب؟! ولنذكر دائما أن أوقات الفراغ ليست لتمضي بعمل «لا شيء». لأن الفراغ إذا لم يلتبس بالكسل فهو

مصدر خير وبركات. فهذا عامل، لا شغل له لأيام، فما الأولى به أن يعمل؟ أخير له من تعبئة ذلك الفراغ بمطالعة ما يناسب مداركه وذوقه في أحد المكاتب أو غرف القراءة العمومية؟

مدارس الكبار

نحن نعنى بتربية أولادنا، وتعليم ناشئتنا، لأننا نعلم يقينا أن من يتعلم يصبح أنسب لمحيط المدنية الحاضرة. وليس من تعلم وندم، ولكن الذين سنحت لهم فرص التعلم ولم يستفيدوا من سنوحها أولئك هم المتندمون.

فلمثل أولئك المتندمين كما لغيرهم، مفتوحة أبواب المكاتب وغرف القراءة، حيث لهم أن يعوضوا عما خسروه بعض التعويض، أو أن يضيفوا إلى ما ربحوه إن كانوا من الرابحين.

يروى أن فتاة فقيرة معدمة، شاهدت البحر لأول مرة في حياتها، فقالت لأول وهلة وقع نظرها عليه: آه! ما أحسن البحر! إن فيه ما يكفي الجميع! والحق يقال إن المفتقر إلى العلم، الجائع إلى الاستفادة ليمكنه أن يقول أيضا: ما أحسن الكتب! إنها تكفي لكل إنسان وتسد كل عوز، فإنها مالئة الأرض، وأكبرها قيمة وأجزلها نفعا، أيسرها وجودا وأقلها ثمنا. والقراءة والمطالعة غنى وافر، وثروة عظيمة للراغب فيهما، بل إن الثروة مهما عظمت قلما يقنع صاحبها بها، ولسان حال المولع بالمطالعة: إن لدي أكثر مما أستطيع أن أقرأ، فليشاركني غيري في هذا المغنم الحلال.

ننسى ونهمل ونحتقر

نعم، لقد ابتدأنا بتعميم التهذيب في مملكتنا، وشرعنا نمرن في أحداثنا اليد والعين في الصناعات والفنون، غير مقتصرين على تعليمهم الأصول والفروع تعليما نظريا لا غير، نعم، إننا نفعل هذا، ونعم ما نفعل.

إلا أنه باق علينا أن نرقى بتهذيب النفوس، إلى درجة أن يعرف الشاب وتعرف الشابة، وعن ثقة تامة، أن النفس أفضل ما في الإنسان، وأن إكرامها وتوفيتها حقها من الاعتبار والتهذيب واجب وضربة لازب. فمن ثم لا ينتظر من

المتهذب أن ينقطع إلى جمع المال انقطاعًا تامًّا وأن يقطع عهده مع الكتب بتاتا. ليعمل العامل ما يعمل، وليقرأ ويعلم نفسه أيضًا.

ولماذا نحتقر العامل الذي لا يعرف إلا القراءة البسيطة، ونحسب أن العلماء والفلاسفة والنوابغ من مخترعين وغيرهم هم وحدهم مكلفون بشؤون الأمة ومسؤولون عن تقدمها وتأخرها؟! فلا شك أنه ينقصنا بعد، وهو نقص كبير، أن نعتبر العامل، ونعتبر العمل اليدوي كما ينبغي.

هذا ومن عرف لمن ولمن نحن مدينون بنجاحنا وفلاحنا يشعر بوجوب اعتبار من يعوزهم اعتبارنا أكثر مما يعوزهم مالنا الذي نستأجرهم به.

فإلى من يعزى تقدم أمتنا؟ يعزى بلا ريب إلى حكامنا العدول، إلى ساستنا المحنكين الغيورين، إلى جنديتنا الباسلة، إلى بحريتنا المنظمة، إلى ذوي الهمة والإقدام، الذين مهدوا لنا سبل الاستعمار، إلى العلماء والكتاب... ولكنه يعزى أيضا إلى كل فاعل اشتغل بيمينه القوية، وذوب الصخر بعرق وجهه، واستعمل دماغه أحسن استعمال. وإليك البعض من أسماء أولئك الفعلة الذين على أيديهم، وبفضل اجتهادهم، أتيح لنا أن نرقى من معارج الفلاح ما رقينا: فـ«وات» كان مهندسا، و«هنري كورت» الذي لا تقدر المنافع المالية التي عادت على إنجلترا بفضل تحسيناته وتجديداته الصناعية، لم يكن إلا ابن خزاف، و«هنتسمان» مكتشف طريقة صنع الفولاذ، كان ساعاتيا، و«كرومبتون» كان حائكا، و«ودكون» كان خزافا، و«برندلي وتلفورد وموشت ونايلسون» كانوا فعلة كغيرهم، والمخترع الشهير «ستيفنسن» ابتدأ حياته كراعي بقر بأجرة بنسين يوميا، ولم يتعلم القراءة قبل الثامنة عشرة من عمره، و«ولتون» كان ابن حائك، و«فراداي» كان ابن حداد، وكذلك «نيو كومن، وأركريت» ابتدأ حياة العمل كحلاق، والسر «همفري دافي» كان خادما متتلمذا عند بائع عقاقير، إلخ.

لهؤلاء الرجال وأمثالهم فضل عميم مقيم، وعلى إنجلترا أن تذكر جميلهم كما تذكر وتشكر سواهم من رجالها، كالقواد والساسة الكبار.

الأمة المتمدنة

كثيرا ما ننعت أمة بمتمدنة وأخرى بغير متمدنة. على أن التمدن الحقيقي لم تتصف به أمة تمام الاتصاف بعد. ونحن إذا كنا في عداد تلك الأمم المطلق عليها اسم متمدنة، وشئنا أن نعرف بهذه الصفة عن استحقاق، فاهتمام حكومتنا ومحسنينا بإنشاء المكاتب وفتح غرف القراءة، وإقبال أفراد أمتنا عليها، من جملة ما يؤهلنا تمام الأهلية لتلك الجدارة.

تسلية البائس

كثيرون هم اليائسون البائسون، الذين يرون نور الحياة ظلمة وبياضها سوادا. وكثيرا ما يكون التجاؤهم إلى ما يخففون به وطأة اليأس، مما يزيد في طنبورهم نغمة، فيخيل لي أن الموافق من الكتب أحسن تسلية وأحسن معز لنفوس هؤلاء وأمثالهم.

لو منيت لتمنيت

قال السر جون هرشل، أحد أساطين العلم: لو ضرعت أصلي -وكانت صلاتي عتيدة الإجابة- من أجل موهبة تكفيني مؤونة تقلبات الظروف وتبدلات الأحوال، وتكون نبع سعادة وسرور لا ينضب، وعدة لي أتقي بها سهام الأيام، ودواء يشفيني من كل سقام، لكانت تلك الموهبة محبة الكتب والرغبة في المطالعة. فمن خلق بهذا الميل، وفطر على هذا الذوق، وتسنى له أن يتبع ميله ويشبع ذوقه، فمن الغريب ألا يعيش سعيدا. دع المطالع يباحث أرباب الأفكار الثاقبة، ويتفهم روايات المؤرخين، ويجاري الشعراء في خواطرهم، دعه يعيش مع صفوة من عاش ومات، ولم يزل عائشا بأفكاره وأقواله، ثم سله يخبرك أنه من الكتب ابن كل عصر سالف، وصديق لكل ذي عقل راجح، وأن العالم بماضيه وحاضره، مشاهد يعاينها بعين النفس. وهل أعظم من هذا؟!

الكتب أحياء

قال شاعرنا ملتن: الكتب ليست جمادا، بل أجسام ذات حياة هي حياة مؤلفيها والمذكورين فيها.

والكتبة الكبار خالدو الذكر أرواحهم في أقوالهم يتعرفها كل قارئ.

لم يمت ميت بآثار فكره
يرفع النفس فوق وادي الممات
ولمن مات بعد إحياء ذكره
فهو باق منه بقيد الحياة

المكاتب والحانات

يا لقومي! ما أكثر الحانات
والمقاهي وما أقل المكاتب!
ما أذل الليرات للكاسات!
والنضار الرنان يعهد غالب
كم نضار في وهدة المسكرات
أهلكوه وأصفر الوجه شاحب
ذهب ذاهب مع الذاهبات
ذاهب للفنا وليس بآيب
عادة حكمت من العادات
هي أم البلا وأم المصائب
عادة كم تعود بالنائبات
فلتمت وليقم لها خير نائب
أيهذا المشتت الليرات
كارها جمعها كجمع العقارب
بنت حان يا بئسها من فتاة
وابن فكر نعم الفتى خير صاحب
تلك دعها واسلم من المهلكات
والكتاب المفيد لازم وحابب

الفصل التاسع

«المطالعة»

ملك كان في الزمان القديم
في بلاد الشرق القديم العظيم
كلما جنه الظلام أتته
مضغثات الأحلام بعد الهموم
فيرى نفسه حقيرًا فقيرًا
يسأل الناس ما له من رحيم
كلهم عابسا بطرف ازدراء
يلتقيه ما بينهم من كريم

***

وفقير في ملكه عاش لكن
مع عنا فقره بألف نعيم
كلما جنه الظلام أتته
مسعدات الأحلام في التهويم
فيرى نفسه مليكا مهابا
يأمر الناس كالغشوم الظلوم
كلهم مطرقًا لديه اعتبارًا
ووقارًا يلقاه بالتفخيم

***

إنما المرء عائش بنهاه
في نعيم من فكره أو جحيم

أجل، كثيرا ما يكون التصور أشد من الحقيقة تأثيرا على النفس وما الكتب إلا مجموعات تتجلى فيها رسوم الحقائق على أنواعها. ولذة القارئ إنما تقوم بتفهم تلك الرسوم وتصور حقائقها. فإذا قرأت وصف الرياض الغناء، والجبال

الشماء، والجداول المنسابة، وخمائل الغابة، وتكسر الأمواج على صخور المحيط، فكأنك طائر على جناح الخيال تعاين بأم عينك تلك المناظر البديعة الرائقة.

دعوني وكتابي

قال الشاعر فلتشر:

دعوني وشأني فالجليس كتابي
أنيس وفيه رفقتي وصحابي
كتابي فيه نخبة من ذوي الحجى الـ
حقيقة تأتيهم بدون حجاب
كتابي فيه للملوك مواقف
أخاطبهم فيها بكل خطاب
أبجلهم طورًا وطورًا أهينهم
أناقشهم بالفكر كل حساب
كتابي فيه كل ما النفس تشتهي
وفي سفري ما عشت خير وطاب
غني به عن كل ذيالك الغنى
وما غير علمي في الحياة طلابي

وقال بلور ليتون:

يؤلفه مؤلفه ويمضي
ويمسي مثل تربته ترابا
ولكن روحه في الطرس تبقى
تكلمنا متى نقرا الكتابا
ترافقنا كما قد كان قبلا
ونبقى مثلما كنا صحابا

***

يقال الكتب خالدة وهذا
مقال للحقيقة قد أصابا
فإن الكتب مثل الناس تحيا
وينتخب البقا منها انتخابا
فهذي كلها ورق وحبر
ولم تحو المفيد المستطابا
وتلك بها تجسم كل معنى
مفيد كل من نادى أجابا

كتاب ماكولي إلى ابنة صغيرة

ماكولي كاتبنا التاريخي الانتقادي المعروف، عاش من الحال على سعة، ومن الجاه على بسطة، مستأثرا بشهرة طائرة، وصيت ضواع. وهو يعترف لنا في ترجمته، بأن سعادته وغناه كانا من فضلة الكتب.

وكتب مرة إلى بنت صغيرة يجيبها على كتاب وصله منها فقال: أنا أرتاح دائما إلى إسعاد البنات الصغيرات، ولا شيء يسرني أكثر من أن أرى بنيتي العزيزة مولعة بالكتب. لأنها عندما تصير طاعنة في السن مثلي اليوم، لا تعود تهمها المأكولات والحلويات، فتجد في القراءة أحسن سلوة، وأسر لعبة، وأبهج منظر. وأنا يا بنيتي لو قدموا لي أن أصير ملكا بتاج على رأسي، وقصر فخيم أسكن فيه، ومآكل ومشارب فاخرة، وملابس مزخرفة، وجنائن، وعربات وخيول، ومئات من الخدم -لكن بدون كتب أقرأها- فإني أرفض أن أكون ملكا. لأني أفضل المسكين الساكن في كوخ صغير يقرأ ما لديه من الكتب، على الملك الذي لا يحب المطالعة.

كيف نقرأ؟

كم من كتاب نضرب به عرض الحائط، ونذكر صاحبه باللعنات، حين لو أنصفنا لكنا له من الشاكرين الحامدين.

وكم من عائب قولا صحيحا

وآفته من الفهم السقيم

فلكيما تأتي بك المطالعة إلى الغرض المقصود، يجب أن تكون سبرا لغور المعاني المرادة بالعبارات كعبارات، وبالقطع كقطع.

والقراءة السطحية قلما تفيد إن لم نقل إنها تضر. ووجه الضرر أنها توهم القارئ أنه قد علم أكثر مما علم حقيقة. فعلى القارئ أن يتبين تمام المقصود بكل كلمة، ويدرك الغاية المرمي إليها بكل جملة، وعليه أن يتشرب روح الكاتب، ويقرأ خلال سطوره، بحيث يتصور لنفسه الموصوفات أو الموصوفين أو موضوع الكلام كائنا ما يكون تصورًا جليًّا لا غبار عليه.

الكتب والاختبار

يفيد الدرس في سنة واحدة قدر ما تفيد التجارب وتكسب الاختبارات في عشرين. هذا فضلا عما في اقتناء الحكمة على كيس الغير من السلامة والاقتصاد من ذات النفس. ويا لحياة ذلك النوتي، الذي لم يأخذ أصول سلك البحار إلا عن الأنواء والزوابع، من حياة صعبة! وتعس هو ذلك التاجر الذي يتلقن أصول مسك الدفاتر على يد الخسارات الفادحة والتفليسات المتوالية! وبكلمة ما أغلى الحكمة إذا اشتريت من سوق التجارب والمصائب.

فلله نعمة المطالعة التي تمكنك من معرفة كل حركة وما يعقبها من السكون. وكل سكون وما وراءه من الحركة، فتكون على بصيرة من حركاتك وسكناتك.

ولا أتمالك هنا من التصريح بأن مراجعة تراجم الكبار، وسير من امتازوا أو تفردوا بصفة من الصفات، أو ضرب من ضروب الحياة، هي خير ما يقرأ الأحداث إذا طلبوا استزادة العلم والاختبار، ولماذا لا يطلبون؟ ومن هذا القبيل الروايات القليلة المؤلفة بقصد نبيل، المضروب فيها على وتر أو أكثر من أوتار النفس، فإنها من جملة ما تجمل مطالعته وتفيد.

انتقاء الكتب

اختيار الكتب واستحبابها، كاستصفاء الخلان واستخلاصهم، أمر هام خطير. ونحن مسؤولون عما نقرأ مثلما عما نفعل. والكتاب النفيس، بعبارة ملتن البليغة، هو دم الحياة الثمين، المتقطر من روح كبيرة، محنطا ومحفوظا، لحياة بعد الحياة.

ولكيما نفوز بالنصيب الأوفر من منافع المطالعة ومسراتها، يجب علينا أن نأخذ الكتاب، مقرين النية على ألا نفرغ منه، ونحن كما كنا قبل السماع به. أو بكلمة أخرى، لنطالع بقصد الاستفادة، لا بقصد التسلية. ولا يفهمن من هذا أنه لا يجوز قطعيا ترويح النفس بقراءة الكتب الرقيقة العبارة، القريبة المرامي، الفكاهية بالأكثر، فإن لهذه قيمة ذاتية لا تنكر. إنما لنذكر أن المطالعة شيء، ومجرد القراءة وتقليب الصفحات شيء آخر.

وإذا أردنا التشبيه، قلنا إن الكتب السهلة المسلية تلزمنا قراءتها بقدر ما يلزم السكر والحلويات بمقابلة أصناف الطعام الضرورية للتغذية. ولا ننكر أن بعض الروايات فائق جليل، ولكن لسوء الحظ نرى العامة لا تميز بين طيب الروايات وخبيثها، وكثيرا ما تقبل على السخيف الساقط منها، وتروج بضاعته.

الكتب كالناس، بل كل كتاب كمؤلفه غالبا، فمنها الصالح ومنها الطالح. وكما أن عالي الجانب عزيز النفس يعرف من شخص خسة ودناءة، فيرفسه برجل الاحتقار ولا يعود يحسب له حسابا، فكذلك صنو المطالعة الأديب، إنه يصطفي الكتب المناسبة اصطفاء ولا يزيد لها إلا وفاء وولاء، وهي تزيده نفعا وهناء.

الفصل العاشر

«الوطنية»

كلمة من المعرب إلى المؤلف

سيدي، حبذا لو صح لي أن أعرب فصلك هذا، وأكون قد أفدت أبناء لغتي، بني دولتنا الحديثة الدستور، ويا ما أعظم دلالة هذه الحداثة!

فإنك كاتب عن إنجلترا، وإلى أبناء إنجلترا، تفتخر ويحق لك الافتخار، وتتمنى القليل، وقليل ما بقي لوطني كبير مثلك في حيز التمني... أما أنا فيعلم الله أن هذه الأغنية التي وقعها القريض على أوتار نفسي، أو وقعتها نفسي على أوتار القريض، والشعر شعور، والشعور شعر، يعلم الله أن هذه النونية من الحزن والشجن والأنين أقل ما يحل محل مقالتك الرنانة. فإن كانت لتقع في نفس غيري الوقع الذي لها في نفسي فهذا سؤل سؤلي، وإلا فحسبي إجابتي لوجداني جزاء لفعلي.

أطربيني يا نغمة الكروان
بشجي يهيج بي أشجاني
أطربيني بكل لحن مذيب
منك حلى مرارة الأحزان
أسمعيني ذاك النحيب لعلي
أتعزى في محزن أبكاني

* * *

أنا مما به زماني دهاني
ودها الغير مثلما قد دهاني
لا أطيق الهزار في الأفنان
يتغنى بمطرب الألحان
يا حنيني لنغمة الكروان
فهي أولى بمهجتي وجناني

***

يا خليلي حدثا حدثاني
بشؤون الأهلين والأوطان
حدثاني بسورة النشوان
بحميا طوارق الحدثان
أسمعاني بالقلب أو باللسان
يا خليلي! أي، وإلا اسمعاني

***

كان ما كان في قديم الزمان
فليكن ما يكون طبق الأماني
لست أنسى ما كان طوعا ولكن
هو أولى ما كان بالنسيان
وبصدري آمال حدث محب
لبلاد صاب إلى السكان
مثل كل الآمال محض محال
تتراءى بعيدة الإمكان
غير أني نفسي بها تتغنى
وعساها تبيت غير أغان

***

إن منها التهذيب في كل صقع
لنفوس البنات والصبيان
ليجلي من بيننا فتيات
في ميادينها مع الفتيان

***

إن منها أن نعرف المال ملكًا

عالي القدر بل خطير الشان
حين تمسي بضاعة الدكان
من نتاج الفلاح والفدان
إن منها ومن يقيد بناني
ويراعي عن رسم معنى المعاني
إن منها حرية الإنسان
وارتفاع العدالة الميزان
،إن منها، ولتنأ عني القوافي
ذكر أمر مهما نأى فهو دان
إن منها تعاضد الأديان
في بلاد الأديان من أزمان
ليعيش الإسلام بين النصارى
بين شعب اليهود كالإخوان
ليعيش الجميع والكل عون
لسواه من أصدق الأعوان

***

رب يا من قد قلت كوني فكانت
حسبما قلت كل تي الأكوان
رب حقق هذه الأماني قريبًا
أو بعيدا وما هما سيان
رب إني تكاد تقنط نفسي
فأذقها الرجا بفرط الحنان
رب إنا من أجل دينك نلقى
غير ذاك الموعود بالإيمان
ربي اهد الجميع خير صراط
لفسيح الجنان أي جنان

إنهم نحوه يتوقون نفسًا

توق تلك الخرفان في القطعان

رب أهلك من بيننا كل ذئب

مترد وداعة الحملان

ولتسقنا عصاة خوفك سوقًا

لمراعي الهنا بكل أمان(4)

4) Citizenship تنبيه، لمثل الأسباب المارة التزم المعرب أن يحرم المطالع العربي من فصل الرعوية أيضًا.

الفصل الحادي عشر

«الحياة الاجتماعية»

نفتخر، ويحق لنا الافتخار، بأن مسكن كل إنجليزي قصره الفخيم وحصنه الحريز، بمعنى أنه محمي مذود عنه، بفضل نظاماتنا العادلة، وتنفيذها المحكم.

إنما ليكن مسكن كل إنجليزي بيته ومقر سعادته وسعادة ذويه.

كيف يصير المسكن بيتًا

بالمحبة المتبادلة، والثقة المتبادلة، والمعاونة المتبادلة، بين أهله. وتذكارات الطفولة التي ترقق قلب الوالدين وتزيد رأفتهم ولهفتهم على أولادهم، وآمال الشباب وإكرام الأخوات وتناصر الإخوة وتكاتفهم ومشاركة الإحساس في السراء والضراء -هذه توجد السعادة البيتية، وتقدس البيت.

المحبة الأهلية

والمسكن الذي هجرته ملائكة المحبة، قد يكون قصرا فخيما ولكنه لا يكون بيتا. فالمحبة هي صفة البيت اللازمة. والبيت بدون محبة كالجسم بدون روح. فلا بالمال الطائل، ولا بالجاه الواسع، ولا بالطول ولا بالحول، ولا بالعلم ولا الفلسفة، كلا، بلا شيء غير المحبة تقوم سعادة البيت. ولا غلو ولا مبالغة إن قلنا إن الفقر والمحبة معا سعادة، والغنى والتباغض شقاء، أو إن المسكنة والمحبة معا سعادة، والإمرة والتنافر بلاء. وإن الجهل والبساطة مع المحبة سعادة، والفلسفة والجدال والشقاق معًا، عيش مكدر لا صفاء له.

البيت ملجأ

البيت ملجأ لنا، نحن الإنجليز، لا من سطوة الغزاة، فإننا والحمد لله في مأمن من هجمات الأعداء، بل من أرياح الغدر، والفتن، والطمع، ومن آفات اللؤم والرداءة التي تهب وتسعى في كل مجتمع إنساني. والأجدر بنا أن

نسميه مقيلا نشعر تحت سقفه بالراحة وخلو البال. ولكن إذا كان غير المحبة العاطفة السائدة بين جدرانه، فكأننا بالتجائنا إليه:

«كالمستجير من الرمضاء بالنار».

الانفراد والاجتماع

الإنسان لا يولد ليعيش وحده. وجنة عدن بكل ما فيها، لم ترض آدم ولا عشير له! وقال الكاتب الرقيق، شاعر الطبيعة والفضيلة(5) ليت شعري! وما هي حالة نفس وحيدة حتى في السماء نفسها؟ فالبشر مقصودون للاجتماع وللانفراد، لا لهذا وحده ولا لذاك وحده.

5) Bernerdin de St. Pierre.

ومن اعتزل الناس بأسرهم وخلا بالطبيعة وخلت الطبيعة به، فمر به نسيمها، ورقصت له أغصانها، وغردت أطيارها، وأشرقت شمسها، وكان قلبه قلقا أو نفسه مضطربة، فأي راحة أم أي سعادة في عزلته؟!

مدرسة البيت

في العائلة نقوم الأخلاق، ونهذب الشعائر، ونتعلم المحبة والإخلاص والاعتبار.

لا بيت حقير من حيث السعادة

ربما كان بيتك حقير البناء، غير مزين بالرياش، أو غير جميل المركز، إنما اعلم أنه أينما كان، ومهما كان، فهو محل إقامتك، وهناك تكون واجباتك. وكلما كثرت المصائب، فبقدر مقاومتك لها في سبيل إسعاد ذويك وأهل بيتك، يكون فضلك وثوابك. واعلم أن من يضطر في معاملة أهله وذويه إلى استنفاد الصبر، والعدل عن العدل، فهو أشقى وأنكد عيشا من ذلك يكابد في كل يوم مشقات الأعمال والأشغال، ويروح ويغدو لا على الربح بل على الخسارة جزاء تعبه نهارا وليلا.

ليست الأعمال بالنيات دائما

والذين ينوون إتعاس الغير، ويريدون الإيقاع بهم، ما هم إلا النزر اليسير من الناس. ويغلب أن يكون الشقاء ناجما عن قلة الحكمة وفساد الذوق، لا عن فساد القلب وسوء النية.

فاعتد أن تلاقي من تلاقي بوجه مشرق، وكلام لين، وترحاب لائق. فإنه لا يكفي أن نحب من هو عزيز لدينا فقط. بل كثيرا ما بمجرد قلة اكتراثنا أو كثرة جهلنا، نجرح حتى القلوب التي تحبنا ونحبها ونكسرها، وكسر القلوب مثل كسر الزجاجة لا يجبر.

قال اللورد شسترفيلد: طالما فكرت في الأمور التي يحتاج الناس إلى معرفتها تمام المعرفة، وأهمها جميعا أمران؛ أمر المحبة وأمر البغض. فإن معظمنا لا يعرف من يحب أو من يبغض وكم، وكيف، وأين، ومتى يجب عليه أن يفعل ذلك.

معرفة من نعاشر

أوليست شخصية كل إنسان كأنها سجينة في حبس اللحم والعظم، وهذا الجلد الخارجي ستار وحجاب، والفم الباب الذي تطل منه النفس وتخاطب نفسا أخرى؟ فعندي إن هذا الباب يجب أن يبقى مفتوحا، وهو مخرج حواس القلب، ومصدر أفكار الرأس، إلى أن يتم التفاهم والتعارف بين الأصدقاء والأقرباء. وإنه لإهمال وخيم العواقب أن يبقى المرء جاهلا لأذواق أصحابه أو أهله، غير عارف بما هم عليه من العادات والمشارب. إذ إن كثيرا من التنافر والتضاغن يكون منشأه سوء التفاهم لا غير.

وقليل من يعتقد أن فن الكلام فن عظيم الشأن، ولكنه هو ذاك، قل المعتقدون أم كثروا. ولا غرو أن اتحاد العائلة وائتلاف أعضائها يقتضيان آداب المعاشرة، وبراعة المخاطبة، كما يقتضيان المحبة وصفاء النية كما مر. لأن:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

العتاب والتعنيف

إذا عاتبت، وبالأحرى إذا عذلت ولمت فسرا وعلى حدة. وإذا شكرت أو مدحت فعلانية وعلى رؤوس الأشهاد. وفي كل حال إذا أردت أن تخطئ وتعنف فليكن ذلك بجد مع إظهار الأسف لما جرى، ولكن تأجيل اتخاذ هذه الخطوة ريثما يحيط علمك واستعلامك بموضوع التخطئة والتثريب، أجدر بك وأولى لك، لأن جرح الإحساسات يؤلم المجروح والجارح.

ولنذكر أن الموت منتظر الجميع. فربما كانت وقفة التوبيخ والتأنيب آخر وقفة للاثنين، وما أغنى الراحل عن ترك البغض في قلب من يفارق! وهو معلوم أن بعض الكلام أشبه بأشعة الشمس البهجة، وبعضه كنصال السهام الجارحة، وليس بضربة لازب أن تفيض بالكلام في كل مكان وزمان، ولكن إذا تكلمت فبما يبهج ويسر. وأي فضيلة في تكدير صفاء الغير؟!

وكما أن كلمة لطيفة قد تكون ينبوع جذل وفرح لسامعها، فكذلك لمحة عين مشرقة بابتسامة قلب يبرق في إنسانها قد تنور ظلمات من تقع عليه، وتبدد دياجير همه وغمه. وما أحسن البشاشة والطلاقة، ولين العريكة، ودعة الجانب! إنها لمن أسمى الفضائل. وأي خير أم أي جمال في تقطيب الجبين، وعبوسة الوجه، والتمسك بأذيال الحذر، وجر ذيول التكبر!

صاح، كن رقيقا، قريبا من القلوب، واجبر الكسير منها بهذه المظاهر، ولو تكلفا. فالناس تؤثر فيهم النظرة والكلمة مثل كل مؤثر.

انتقاء العشراء والأصدقاء

المرء برفقائه وعشرائه:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويقول المثل الإسباني: قل لي من تساكن، أقل لك من أنت.

إن سعد الحياة بالأصدقاء

وهي من دونهم زمان شقاء

فانتخبهم من صفوة الفضلاء

وأولى الصدق في الولا والوفاء
إن هذي نصيحتي الثانوية
***
وإذا تم عقد أهل الولاء
فارع عهد الولا وعهد الإخاء
واخلعن الريا فثوب الرياء
شف عما في الصدر من أهواء
واترك العدل واعتصم بالرضاء
في دعاوى الأصحاب عند القضاء
والغ لغوا عوامل البغضاء
تاركا فعلها لأهل الخناء
وتصبر إذا ابتليت بداء
من هواهم فالصبر خير دواء
وأجبهم حالا لكل نداء
لا تخيب لنفسهم من رجاء
صف منك النيات كل صفاء
بعد حسن اختيارهم وانتقاء
إن هذه نصائحي الأولية
***
إنهم عدة لدفع البلاء
شركاء السراء والضراء
إن فيهم تضعيف كل هناء
إن فيهم تخفيف كل شقاء
عيشة الأصدقاء حقا هنية

الزواج

أهم وأخطر خطوة نتخذها في طريق هذه الحياة الدنيا -وما الدنيا بدار إقامة، إن هي إلا طريق مسلوك- هي الخطوة الأولى نحو الزواج. وأعظم بركة تحل على الإنسان امرأة فاضلة، وأعظم لعنة تسقط على بيته امرأة ناقصة.

وإذا كان تقديم النصائح بهذا الشأن غير السهل اليسير، فلا أقل من عرض الخواطر الآتية:

الزواج الباكر، ككل فاكهة في غير أوانها، مر المذاق، سيئ العواقب.

لا تتزوج اغترارًا بالبائنة (الدوته)، فقليلة هي بركة مال يجتمع في يدك في ساعة واحدة. كلا، ولا تتزوج وأنت صفر اليدين معوز تكاد لا تسد حاجات نفسك، إذ كيف بك، وقد أضفت إلى نفسك نفسًا؟! ومن اشترى عروسه بفلوسه، أو باع نفسه بفلوس عروسه، فلا يلبث أن يصفق صفقة المغبون.

ولا تتصور أن الحياة الزوجية كلها شهور عسل، بل اعلم أن دون عسل ذلك الشهر الأول، إبر نحل الجد والاجتهاد، وبعده تصير السعادة كل السعادة بخدمة العيال، والراحة كل الراحة بالتعب في القيام بأودهم، وتقديم لوازمهم وسد حاجاتهم.

قال هوميرسس، الشاعر اليوناني: إذا اتخذتها امرأة لك، فكن لها أبا وأما وأخا، لأن التي تترك أباها وأمها وإخوتها وتتبعك، لحق لها أن ترى فيك رأفة الأب، وحنو الأم، ورفق الأخ.

ولا يغرنك الجمال وحده (ولا تبت أسير طرف أكحل)، فعقد الزواج لا يتم باليد والعين، بل بالعقل والقلب. والحياة الزوجية إما هناء أو شقاء، أي كما تريد أنت وتختار.

وإذا كان الزواج سعيدًا، فبأي العبارات نوفيه حقه من الوصف! الأب والأم والبنون، إن صلوا فمعا يصلون، أو عبدوا فمعا يعبدون، أو صاموا فمعا يصومون، أو حزنوا فمعا يحزنون، أو فرحوا فمعا يفرحون.

والأولاد إذا انوجدوا في البيت، فإنهم يطفحون كاس سعادة الزوجين. على أنه يتعقب ولادتهم، ولا تعقب يعقوب لعيسو، ولادة الواجبات نحوهم. فإن

الوالدين مسؤولان أمام الله والإنسانية عن تربية بنيهم، وإعدادهم للحياة. وإلا فبأي حق يخرجون النفوس إلى حيز الوجود؟! ولينم الولد على حرارة المحبة، وفي هواء الطهارة، حتى لا يقرسه فيما بعد، برد الحياة ولا يميته فسادها.

الفصل الثاني عشر

«الشغل والاجتهاد»

ولا تفرط ولا تسرف في شيء على الإطلاق، ولكن فوق كل اقتصاد ليكن اقتصادك من الوقت الثمين العزيز الوجود. فيومك يأتيك مرة واحدة لا غير، وإذا مر مرة فلا يمر ثانية.

إذا مر يوم فالسلام عليه
تتوق ولكن لا سبيل إليه
فيومك فافعل كل ما تستحبه
ويحسن فعلا يا ابن آدم فيه

ولا تصرف الوقت في ما تندم عليه بعد حين. إذ لا أمر في الفم من أنامل الندم، وتكرار ليتني فعلت! ليتني لم أفعل! والوقت وديعة أو أمانة تسلمها، فاحرص عليه، لأنك سوف تحاسب على كل دقيقة تفرط منه.

حياتك لك

وإنما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعول في الدنيا على رجل

وقال اللورد ملبورن: لا يجوز أن نسمع الأحداث إلا هذه اللهجة، هذي هي الحياة، ولكم الخيار بين أن تحصلوا فيها قوتكم بعرق جبينكم وبين أن تموتوا جوعا.

من فضائل الشغل

إن المنصب على شغله، يأمن التورط في أوحال البذاءة والرذيلة والخطيئة. فاملأ وقتك بالأعمال الصعبة المفيدة، لأن آفات الشر تختلس فرص الخلو والتواني، وتزحف فتجرب المعطل، وتخرجه من عدنه، إذا كان من حالته في نعيم.

الوقت والأرض

قيل الوقت بداءة الأبدية، والأرض موصولة بالسماء. فمن نمط حالتنا في هذه العاجلة تكون حالتنا في تلك الآجلة.

ضياع الوقت

يروى أن بياترو دي مديسي كلف النحات الشهير ميشال أنجلو أن يصنع له تمثالا من الثلج، ففعل. فلا مشاحة أن الوقت الثمين الذي استعمله صانع تلك التماثيل الجميلة الخالدة في صنع ذلك التمثال الثلجي ذهب ضياعًا. فلنعتبر بهذا، ذاكرين أن وقت كل واحد منا ثمين له، عزيز لديه، فلا نصرف ساعة في ما لا طائل تحته ولا يجدي نفعا، فنكون قد أضعناها.

نقول برأي ونعمل بغيره

قال الفيلسوف سينكا: إني لأعجب من أننا لا نفتأ نتذمر ونتأفف من قصر الوقت وضيقه، ولو درينا لانعكفنا على العمل، وقمنا بالواجب، لأننا مع شدة تذمرنا وتأففنا أبدا نقتل أيامنا المعدودة ونجازف بساعاتها كأننا لا نتوقع للعمر انتهاء.

سر النجاح

عندي إن من أعظم أسرار النجاح، إن لم يكن أعظمها، المقدرة على مواصلة السعي والكد، وحث مطايا الاجتهاد. وإني مقلدًا عبارة شيشرون أقول: إن أول دواعي الفلاح المثابرة، وثانيها المثابرة، وثالثها المثابرة.

ما الذي يقصر العمر؟

الشغل؟ العمل؟ الاجتهاد؟ لا لعمري! بل الهم والغم والهواجس التي يطردها وينفيها الشغل، هي التي تنهك الجسم وتميت أعضاءه ومن جملتها الدماغ، لأن الأعضاء مخلوقة للاستعمال، لا للإهمال، والاستعمال إحياء، والإهمال إماتة لها. فكيف بإهمالها وتثقيلها بصداء الهموم؟

قال رسكن: أنجع دواء تصفه لنحيلة الجسم سقيمته، من جراء الشواغل والأحزان الساكنة المتحركة في صدرها، قلت أحسن علاج تصفه لها، أن

اشتغلي من صباحك إلى مسائك، فلا يخيم على الأرض الظلام، إلا وأنت من التعب الجسدي أو الشغل العقلي، في راحة قلب ونفس وسلام.

الأقوال والأفعال

الكلمات بنات الأرض، والأفعال أبناء السماء. فمهما وجدته يدك لتفعله فافعله بكل قوتك. وإذا وجدت عملا فأقبل عليه بكل ما عندك من الرغبة والنشاط.

أي أصعب؛ الشغل الشاق، أم الذل؟

إن الحياة بذلة كجهنم
وجهنم بالعز أفضل منزل
لا تسقني كاس الحياة بذلة
بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

من أشرف وأعلى مقاما في الهيئة الاجتماعية العادلة؛ أذلك الفلاح الواقف النهار بطوله على محراثه في وحشة الحقول، أم ذلك اللابس لبس السيد بقبعته وخيزرانته الجديدتين، الذي لا يرى إلا جاثيًا على ركب التسول والاحتيال؟

الاجتهاد يغلب الفقر

تكلم كويت عن كتابه المعروف في صرف اللغة الإنجليزية ونحوها وبيانها، فقال ما به عبرة لكل صاحب أمل توهمه الفاقة ورقة الحال: تعلمت مبادئ القراءة ومبادئ الصرف بنفقة ستة بنسات يوميًّا، وكنت إذ ذاك جنديا. غرفة النوم كانت لي غرفة درس. جرابي العسكري كان محمل كتبي، وقطعة من الخشب منضدتي، ومدة تلمذتي لم تتجاوز السنة طولا. كنت ضيق ذات اليد، لدرجة أني ما كنت أشتري لي شمعة ولا زيتًا، وكل ما تيسر لي من النور في أثناء ليالي الشتاء الطوال كان ما اغتنمته من دوري للاقتراب من النار. والقليل من دريهماتي الذي كنت أستبدله بحاجتي من الورق والحبر كان علي كثيرا. وإنني لا أزال أشعر بقشعريرة لذكرى ليلة ما كان أطولها وأثقلها على

نفسي: غابت الشمس وشاهدت غروبها الجميل، وكنت قد قضيت سحابة نهاري بالدرس والاستفادة، ودخلت غرفتي منتعش الفؤاد ويدي في جيبي تلمس بلطف نصف بني فاض عن مصروفي اليومي.

وبت معللا النفس بشراء سمكة أتبلغها في الصباح. ونمت على ذلك الأمل، ولعظم فرحي لم أستغرق في النوم كعادتي بل ما أزف الهزيع الثاني من الليل حتى رأيتني أجول في الغرفة، مبهوتا حائرا، أدور، وأروح، وأجيء، وأفتش، وأخبط في ظلمة غرفتي تحت جناح ظلمة ليلتي خبط عشواء، رجاء أن ألمس ثانية تلك القطعة الزهيدة القيمة ولكن خاب الرجاء. وبعد أن أعياني التفتيش توسدت اليأس والتحفت بالشقاء، ورقدت على ألم من شوك القتاد، بائسا قانطا من الحياة.

فإذا كنت في تلك الأحوال قدرت أن أتعلم ما تعلمت، مما أهلني لتأليف هذا الكتاب، فأي عذر بعد، لأي من الأحداث ألا يستطيع شيئا؟

كويت لم يكن ذا مال، ولكنه كان ذا حزم وعزم وكفى بهما المرء غنى ومقدرة في هذه الدنيا.

يقول بايكن: أكثر الناس لا يعرفون قيمة أموالهم ولا قدر مقدرتهم، فيغترون بالأموال، ويحسبونها تأتي بكل مرام، وتدنو من كل غاية، ويحتقرون مقدرتهم الذاتية ولا يحسبون لها حسابًا. على أن الاعتماد على النفس، والرمي بها في كل مأزق، وتعريضها للمصائب مما يزيدها قوة وعزة وقل سعادة. ومن الأمثال الشرقية: كلب يعمل، خير من أسد يكسل.

خطاب الطبيعة للإنسان

تكلم إمرسن بلسان الطبيعة، قال: اشتغل أيها الإنسان، في كل حين اشتغل، سواء مأجورًا، أم غير مأجور، اشتغل. كل ما عليك أن تشتغل، وجزاؤك لن يضيع. اشتغل مهما كان نوع الشغل دقيا أو غير دقي، كأن يكون حرق الحقول أو نظم الأشعار. وليكن شغلك بأمانة، ولم تعدم أجرك. ومهما فشلت فلا تيأس ولا تجبن، إنك للفوز خلقت، وتفوز. وأقل جزاء لعمل تنجزه كونك أنجزته.

عود على بدء

رأس الكسلان معمل الشيطان. أخبرنا روائينا الكبير سكوت، أنه كان يطرد شيطانه، ويستعيذ من أبالسته، بالشغل لا بغيره. وإن لكل امرئ شيطانا يوسوس له بالشر، فلكيما ينجو من حبائله عليه أن يعتصم بحبائل الجلد على الشغل. والكسل غير الراحة. بل الكسل أتعب من العمل. والرومانيون كانوا يقولون: صعب أن تستريح إذا كنت لم تتعب بعمل شيء.

الإجهاد والاجتهاد

الطبيعة تقول: الارتقاء لا يكون طفرة، بل خطوة خطوة.

وعلى المجتهد أن يقف عند حد الاجتهاد، لئلا يستهدف لمهالك الإجهاد. وخير الأعمال ما يتم بالثبات والتأني، وعاقبة العجلة الندامة. الندامة إما من أجل عدم صلاح العمل أو من جراء الأضرار الصحية التي قد تلحق المجهد نفسه في إنجاز أعماله. وقد يجتمع الندمان.

فاشتغل إذن، لكن على مهل، وباعتناء، وبدون اضطراب بال، أو هيجان بلبال.

أكرر وأعيد

انهض باكرا. اسمح لعضلاتك بنصيبها من الرياضة والراحة. اعتدل في طعامك. أعط الجسم حقه من النوم. استقبل الأعمال برضا. اشتغل، اشتغل. القلق، والاضطراب، والتهيج، والتسرع، والحدة، لا تغنيك عن الشغل فتيلا، بل ربما عادت عليك بالوبال، وكائنا شغلك ما يكون، أتقنه كل إتقان، ولا تدخر شيئا في الإمكان. فالقائد ولنكتن لولا هذه الخلة التي كان عليها، ما نال ما نال من أكاليل الفوز. فإنه كان حريصًا على كل دقيقة من وقته، يتفقد فيها أحوال جنوده من مأكل ومشرب وملبس. والإقدام أجره مقدور. فكولمبس طلب الموت في سبيل اكتشاف طريق غربية إلى الهند وكان جزاء إقدامه اكتشاف أمريكا.

الضجر من الشغل

لا تنظر إلى شغلك بعين السآمة والكراهة. فإنك، إن أردت، قادر أن تجعله سهلا لاذا. اعرفه جيدا، وتبين مواقع الخلل من نفسك وسدها، ثم أقبل عليه بكل رغبة ونشاط تجده كما تريد.

واعلم أنك كلما ضجرت وتبرمت من حالتك زدتها صعوبة ومشقة، وحياتك مرارة.

ثلاثة أشياء

السعادة بثلاثة أشياء؛ شيء تعمله، وشيء تحبه، وشيء تأمله.

وخلاصة القول اشتغل. ولكن لا تقاوم الطبيعة، ولا تجذف ضد المجرى، إذا كان يمكنك أن تسالم الطبيعة، وأن تجري مع المجرى، وإلا فافعل.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب

فما حيلة المضطر إلا ركوبها

الفصل الثالث عشر

«الإيمان بالله»

يقال إنه من بين 10.500.000.000 نفس في العالم، أربعمائة مليون بوذيون، وثلاثمائة وخمسون مليونا مسيحيون، ومائتا مليون هنود، ومائة وخمسون مليونا مسلمون. ولا عجب من هذا الاختلاف والتباين؛ لأنه إن كانت الأرض التي تحت أعيننا لا يعرفها الكل تماما، بل لهم فيها الآراء المتباينة والأفكار المتعددة المتضاربة، فكم يسوغ وجود الاختلاف والتباين والتضارب في المذاهب والمعتقدات، مما خص العالم الثاني غير المنظور.

الله في كونه

يقولون أين الله أين عجائبه
وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم
ويبدون ما في صدرهم ما يكاذبه
فأي امرئ في الجو يرسل طرفه
إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله في عرش مجده
وهذي حواشيه وهذي مواكبه
وأي امرئ ما سبح الله مرة
إذا راقب الأزهار وهي تراقبه
عجائب ربي في الأنام عظيمة
ولكن جهل المرء لا غير غالبه

***

نعم، إن الشك بداءة اليقين، وهو أساس الفلسفة التي ليست إلا سؤال لماذا؟ ولكننا نعيش في عالم أسرار، وبين أكوان قيل فيها:

كوائن ليس يدري الكنه منها

سوى من أمره كاف ونون

ولئن كنا نعجز عن فهم أبسط الأزهار تركيبًا فهمًا تامًّا فما بالنا نحاول فهم الأزلي الأبدي غير المحدود!

أوليس كل إنسان يشعر بوجود العزة الإلهية؟! حسبنا هذا الشعور، ولننزه ذاته المقدسة عن محاولة التعليل عنها، طالما نحن نقر ونعترف بقصورنا عن معرفة أسباب كل مسبب.

وهذا نقوله لا لنثبط همم الباحثين المنقبين ورواد الحقيقة -على أن معظمهم من شديدي الثقة والإيمان- ولكن ردا لتيار أولئك المدعين المعتدين بالعلم والمعرفة، الذين يغلب أن يبطنوا خلاف ما يظهرون، بدليل سلوكهم وتصرفهم.

الإيمان بدون أعمال لا يجدي. وسلدن يشبه الإيمان والأعمال بالنور والنار، ويقول: أتصور النور والنار كشيئين مختلفين مستقلين الواحد عن الآخر -ولكن أطفئ الشمعة، فلا نور ولا نار.

وزبدة الكلام، أننا كبشر، يلزمنا أن نقنع بالقليل من المعرفة بالنظر إلى ما لدينا من المجهولات والمكتومات من الأسرار الإلهية والطبيعية.

الفصل الرابع عشر

«الأمل والرجاء»

يتعجب الناس لذكر الرجاء بين الفضائل الإنسانية، ولكن تعجبهم لا ينفي كونه من أسماهن وأعظمهن. واليأس غير محمود، بل إنه خطيئة، وإن لم يكن خطيئة بحد ذاته فما يؤول إليه في الغالب كالكفر، وبغض الناس، وكره الدنيا لدرجة الانتحار، تخلصا من الحياة، ومن أفظع الخطايا. وإذا كان اليأس كذلك، فلم يبق إلا أن نحسب الرجاء فضيلة وصلاحا، لأن الشيء بنتائجه. ولا يخفى أن الاحتمال والمجاهدة، وثبات الجأش، وصدق العزيمة، وأمثالها، تنطوي على رجاء وأمل، وهذه الخلال من أشرف ما يفتخر به الإنسان.

تحاش الخيبة

الاستسلام للمصاعب بدون مقاومة خيبة وفشل شائنان. أما الاندحار من وجهها، بعد إفراغ الجهد وبذل ما في الطاقة، فلا شين فيه. فإذا اعترضتك العقبات في الطريق، فلا تقف دونها وجلا خائفا، مترددا حائرا، بل شد أوتار النفس وتحفز للوثوب من فوقها، غير هياب ولا وكل.

وإنه لمن الغريب أن يتخوف المرء من أخطار وهمية، ويلقي بنفسه في أخطار حقيقية، كأن يجبن ويحجم عن النطق بالحق مخافة الهزء أو المناقضة، ولا يتردد أقل تردد في فعل كل جالب للعار، وسالب للاعتبار، وجار إلى البوار.

القناعة

يغلب أن تكون القناعة مرافقة لقلة الرجاء، وبئسها إذ ذلك. على أنه يجب على الطامع بالزيادة والطامح إلى الارتقاء، أن يبقى على بصيرة من أمره، فلا يطوح به رجاؤه إلى ما لا يدرك من الغايات ولا يستقيم من الرغائب.

وعلى الإنسان أن يكون ذا أمل، إذ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل. ومن قل رجاؤه، انفطر قلبه وضاقت حيلته، ومن فقده، فقد كان خيرًا له لو لم يولد.

لا بد من الزلل

لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، فإذا غلطت مرة فاستفد من غلطتك، وخذ لك منها مثالة تربأ بك من ارتكاب نفس الخطأ ثانية. ولا تخف أن تغلط، فمن لا يغلط لا يتعلم. ولله در القائل:

من قال لا أغلط في أمر جرى
فإنها أول غلطة ترى

العاجل والآجل

الحاضر هو وقت العمل، ولكنه من الحكمة أحيانا أن ننظر إلى الماضي وإلى المستقبل. كثير من مصائبنا تدعوه إلينا أفعالنا الحاضرة، وكم تروح سعادة سنين مقبلة فدى لذة ساعة مولية. وهو صحيح أن عصفورا في اليد خير من عشرة في الشجرة، ولكن هناك فرقا؛ هو أن عصافير الشجرة قد تحلق في جوها ولن تدخل القفص، حين أن المستقبل آت لا محالة. ناهيك بما في نفس الرجاء وانتظار الخيرات المستقبلة، من اللذة الفكرية، خير اللذات.

الشجاعة

يجب على الإنسان قبل كل شيء أن يكون رجلا، بما في الرجولية من الشجاعة والإقدام، وقوة الإرادة، وشدة البأس. والشجاعة ليست خلة أو فضيلة فقط، بل إنها خلق طبيعي في المرء. ويقال يستحسن الجبن واللطف في النساء، ويستقبحان في الرجال، والأصح أن الرجل يجب أن يكون نشيطا ولطيفا في وقت واحد، كما أن المرأة خير ما تكون عليه الرقة والقوة معا.

والشجاعة ولا ريب غير التسرع والتهور. فهي لا تقوم باحتقار الأخطار والمصاعب، بل بمقابلتها بالحكمة والبأس الممكنين. لا بسالة في اقتحام مهلك لا نجاة منه، ولكن إذا هجم العدو وكر فالخوف منه يزيد الموقف حرجا، والمفر الوحيد منه أن تكر عليه. وتولية الأعداء الظهور حرصا على الروح، هو الجهالة وتسليم النفس للقتل بعينهما.

من الحكايات القديمة أن غزالًا أجفله سقوط ريشة قربه، ففر هاربا من هذا الخطر الذي خاله عظيمًا إلى الوقوع في حبائل الصيادين. ومنها أيضا أن جيشًا عرمرمًا رأى عن كثب غبارًا أثاره قطيع من الغنم، فظنه العدو مقبلًا مفاجئًا، فشمروا عن ساق الهرب وما عتموا أن تواقع معظمهم في هشيم فهلك.

فابق رائقًا مستبسلًا ، وانتزع الورد من بين الأشواك، بدون أن تمس بأذى. أو تبعًا للمثل الشرقي، اسع على أقدام القناعة تحت أذيال الأمان.

إذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع.

وإن لم تستطع شيئًا فدعه

وجاوزه إلى ما تستطيع

يقال القناعة غنى، وما أصح هذا القول أحيانًا! ويقول غوته، الشاعر الألماني الكبير: سر النجاح طلب القليل المفقود، والتنعم بالموجود. فلا تغال في الطلب ولا تستبطئ إجابته. فإن من تأنى نال ما تمنى.

كل حال تزول

أيها الحامل هما

إن هما لا يدوم

فكما تمضي المسرا

ت كذا تمضي الهموم

وعقيب الظلام الضياء، وبعد الشتاء الربيع. فإذا بت على همك ربما صحوت عنه.

يا أيها القلب الكسير

لا تيأسن مما يصير(6)

(6) لو نفلو.

فإذا الغيوم تلبدت

فوراءها شمس تسير

والدمع مثل القطر أو

مثل الندى فوق الزهور

ولكل مرء يوم حز

ن تلاه يوم السرور

التجارب والرجال

إن الرجال صناديق مقفلة

وما مفاتيحها إلا التجاريب

فمن ألمت به مصيبة وابتلي بما لا يطيق، وهجم عليه جيش الهم والغم بسود راياته، فما عليه إلا أن يعد من حزمه قائدا ويجرد من عزمه عسكرا ويصلي المصائب حربًا عوانًا، يبلي فيها أحسن بلاء، مسددا سهام الأمل والرجاء في أكباد البلايا -فيكون بذلك قد لقي فوائد عظمى، لأن ما تسلح باللائق والواجب وحارب الأيام بهما، فكم عسى أن تسمو مبادئه وتكبر نفسه.

لا خير في الناس كل الخير في الأمل

أصـــل الشجاعة والإقدام في الرجـل

والدهـر يومان يوم لا اضطـــراب به

ويــوم خـــــوف يراه المرء بالوجل

ومن يك الحـزم والإقـــــدام عدته

يلقى المصاعب لا يخشى من الفشـل

وما التخوف واليأس المميت ســوى

جهـــــل ومن يعرف الأيام يبتسـل

كن ذا رجاء يظل العيــش ذا ســـعة

ما أضيق العيش لولا فسحـــة الأمل!

الفصل الخامس عشر

«وجوه الإحسان»

يجب علينا أن نفعل بالغير، كما نريد أن يفعل الغير بنا. ولكن فوق ذلك ينبغي لنا أن نحسن الظن في الناس، وأن نتكلم عن الناس كما نريد أن يظن الناس فينا ويقولوا عنا. وإذا كنا لا نتساهل ولا نتسامح مع الناس، فبأي حق نتقاضى تساهلهم وتسامحهم معنا؟!

بعضهم يظن أنه يتغلب على كل المشقات بالعنف والقوة، ولا يفتأ يحاول ذلك ويخفق سعيا. وبعضهم مستعد في كل أين وآن لأن ينكر ذاته ويتفانى في خدمة الآخرين.

وقليل قليل من ينتبه إلى الطفيف من أعمال اللطف والإحسان، التي على حقارة شأنها، لا تزيد الفاعل إلا فرحًا وسرورًا داخليًّا.

مقابلة الأذى

كثيرا ما نتألم ونتمرمر من مؤذينا، أكثر مما تقتضي الأذية، ونحقد ونوطن النفس على الاشتفاء بأخذ الثأر ونزيد الجرح إيلاما، ونسوم الضمير ما قد يميته. ومن المعلوم أن من تعمد أذى الغير، فقد أذى نفسه أولا، كالنحلة إذا لسعت فأقل ما يصيبها فقد حمتها سلاحها الوحيد.

يقال إن نوعا من الرخم والعقبان لا يشتم إلا روائح الجيف، وإن نوعا مؤذيا من السلحفاة يبدأ بالعض واللدغ قبل الخروج من البيضة، ويموت وهو يعض ويلدغ. وكذلك بين الناس من همهم الوحيد استطلاع طلع الغير وانتقادهم، والتعريض بهم. على أن الإعجاب بالغير وإظهار الارتياح لما هم عليه من الخلال والصفات أسلم وأحكم. والانتقاد إن لم يكن في محله وآتيا عن طريق النصح والإخلاص، فما أحرانا بالابتعاد عنه كل الابتعاد.

جرب دائما أن ترى الخير والجمال في كل من حولك وما حولك تجدهما.

الرفق

اصبر على الغير دائما. نحن نعلم أن الأولاد إذا أزعجوا وأقلقوا راحة البيت، ففي تسع مرات من عشر يكون تألمهم لجوع أو خلافه سببا في ذلك. وكم في العالم من كبار، هم بالنسبة إلينا كالصغار ضعفا وقصورا. وكم من مرة إذا وقفنا على أحوال من نتوهم فيه قصد إهانتنا والإجحاف بحقوقنا، وجدناه مستحقا حلمنا لا غضبنا وسخطنا.

ومن الأمثال السائرة: إذا عرف السبب بطل العجب. ومنها: لا تلم الغائب، بل إذا حضر فافحص ومحص أمره، وغالبا ما تلفيه بريء الساحة.

وكيف نستحل أن ندين الناس ونحكم عليهم كما يخيل لنا ويتراءى، وخلايا الدماغ محجوبة عنا، وخفايا القلوب لا يعرفها إلا الله؟!

ولربما كان التشويه الذي تراه في وجه من تعيبه وتستشينه، سمة إبلائه البلاء الحسن في موقعة شهدها وجاهد فيها.

فالله وحده العالم بذات الصدور وهو الديان العادل الرحوم.

إظهار الاستياء والاغتياب

لا أقول إنه لا يحسن بالمرء أن يستاء من بعض الأمور، فإن عدم الاستياء مما يمجه الذوق وتأنفه النفس، مخالفة للطبيعة. إنما أقول إن إظهار الاستياء قلما يفيد ولو قليلا. فإذا لم يكن عندك كلام لطيف رقيق تعبر به عما يقوم في نفسك، فالأفضل أن تصر على عدم إظهار ما تضمر، ذاكرا قوله:

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها
كفى المرء نبلًا أن تعد معائبه

وهذا يذكرنا بالاغتياب، وسلق الغائب بألسنة حداد، طعنا وذما. وأنكى ما يجري من هذا القبيل أن يكون المغتاب نفسه من أشد المتوددين المتزلفين المداحين لمن يتعمد غيبته. فإذا وجدت في مجلس ارتفع فيه تيار الاغتياب، وذكر الغير بالقبيح، فتمالك من المساهمة والمجاراة، مرددا في نفسك:

إن شر الناس من يمدحني
حين يلقاني وإن غبت شتم

الرفق بالعجماوات

من المسلم أنه لا بد للإنسان من إعدام بعض الحيوانات. فبدلا من أن يوجد فينا هذا الفكر القسوة على المخلوقات الضعيفة، فلماذا لا يبعث فينا روح الامتنان لها وفكرة وجوب معاملتها بالرفق ما دامت هي حية على الأقل؟ وسواء اعتقدنا أن للحيوان نفسا أم لم نعتقد، فإن له لا مراء روحا تزهق وحياة تنتهي. ومن راض نفسه على الإشفاق على العجماوات صار أقدر على الرفق بإخوانه وبني جنسه. ومن أحب مخلوقات الله وعباد الله، فهو خائف الله، ومخافة الله رأس الحكمة.

الرحمة

من صفات الرحمة أنها لا تغتصب، فهي مثل القطر اللطيف الذي تجود به السماء على الأرض، فتروي ظمأها. والرحمة بركة مزدوجة، تحل على صاحبها وموضوعها على السواء... وهي إن تكن في الملوك، فأفضل ما فيهم. فقوة الملك في صولجانه وعرشه، ولكن رحمته في صدره، وفي قلبه، وفي الحبة منه. والرحمة صفة من صفات ذي الجلال الأقدس، وهي قرينة العدل، وأولو الفضل أبناؤها.

الصدقة

نقول الإحسان والصدقة مترادفان. ولكن الكرم والسخاء بالصدقات، ليس إلا وجهًا واحدًا من وجوه الإحسان. ناهيك بما في التصدق على المحتال (النصاب) والكسول الدنيء المدعي العجز، من الضرر الفاحش الذي يلحق بالإنسانية والهيئة الاجتماعية.

فالإحسان المرادف للحلم والصفح، والانعطاف على من يمسنا بسوء، هذا هو الوجه الذي ندعو إليه، ونحض عليه.

والآية الذهبية أن انس ما يصيبك من الأذى، وحاذر أن تنسى ما تصادف من الحسنى.

ولا بدع إن شبه أحدهم لسان الولد العقوق بلسان الأفعى، فإنه يلدغ القلب ويسمم دمه ويفسده. والذين لا يعفون عن غيرهم فلا حق لهم أن يفوزوا بعفو الغير.

الفصل السادس عشر

«الشيم والخلق»

حياة المرء أفعاله وأقواله، لا أيامه وأعوامه. وإنما العبرة بالأخلاق والشيم. ولله در القائل: قف مرة مفكرًا متأملًا، ووطد النفس على ألا تتردد في طاعة الضمير، ولا تتوان في الامتثال لأمره والارتداع لنهيه، تكن لك تلك الوقفة أم البركات مدى الحياة.

الواجب

تأجيل القيام بالواجب وإهماله ما زاد سعادة ولا يزيد. والعاقل من كان مصداقا لقول الشاعر وردسورث:

فتى يزدري طبعا بكل المخاوف
وليس بها مثل الجبان بواقف
إذا ما دعته الواجبات أجابها
وأعلى شراع العزم رغم العواصف
وإن صادفته بالألوف مخاطر
يقابلها والله عون المصادف
ولا يتقي إلا يسعد التقي
فليس لغير الله أصلا بخائف

الافتقار إلى واحد

إلام يحتاج طالب الفلاح في الحياة؟ شيء واحد لا غير يعوزه، فما هو: المال؟ لا! القوة؟ لا! الذكاء؟ لا! الشهرة؟ لا! الحرية؟ لا! الصحة؟ حتى ولا هذه الضالة المنشودة! بل الشيم، وإرادة غلابة على الهوى. ومن كان ضعيف الإرادة يعرف ولا يقدر، فهو مسكين يرثى لحاله.

وخلقك كما تختار أن يكون. إن شيمنا في حيز إرادتنا، إذ لا يمكن ولا هو من الضروري، أن يكون كل الناس شعراء أو موسيقيين، أو فحول علم. ولكن من الواجب على الإنسانية، أن يكون كل أبنائها كما يمكنهم أن يكونوا ما في

سوى المواهب والفطر الطبيعية الموزعة على الأفراد. فالإخلاص والوقار، والاحتمال والتجلد، وكره الفخفخة واحتقار التنعم بالملذات، وكرم الأخلاق، وحرية الضمير، والشهامة، وعدم الميل إلى الإفراط والتلف والعبث، كل هذه الصفات، ممكن تجليها فيك أيها الإنسان، ولا عذر لك إن كنت لا تظهرها في تصرفاتك من يوم إلى آخر.

رأيك مصيب لو عملت به

لا أريد الاستقلال بالرأي والاستبداد به، بل أعني أنك إذا قمعت نفسك عن فعل ما تشعر بأنك تخجل بفعله من ذاتك ما دام هو مستور، ومن الناس إذا انفضح، فأنت حكيم في أغلب الأحيان.

وقال سينكا ما يقابله قول المتنبي:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل

عما مضى منها وما يتوقع

ولكن ذلك بئس الصفاء، فهو الكدورة المعروفة بعينها.

طريقة فرنكلين

فرنكلين أحد رؤساء جمهورية الولايات المتحدة، الخالد الذكر، والذي أفادنا بجملة نصائح، اختط لنفسه خطة يقال إنه اتبعها وكانت سبيله إلى النجاح. وهي أنه نظم له لائحة صفات شريفة، وعادات قويمة، وجعل يروض نفسه عليها تدريجيا، مقيما على الواحدة حتى إذا أنس تملكها من نفسه، انتهى إلى غيرها، وهلم جرا. وإليك اللائحة: تجنب المسكر، الرواق والسكينة، الترتيب، العزم، الاقتصاد، الشغل، الإخلاص، العدل، الاعتدال، النظافة، السلام والطمأنينة، العفاف، الوداعة.

ولكن على فرض أن هذا الرجل العظيم قال إنه فعل ذلك، وأشار بفعله على كل واحد، ولكنه لم يفعل، فأي عار وشنار على حد قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم

طلب العلا

كن طماح الطرف، بعيد الشأو ما استطعت، لأن من لا ينظر إلى الأمام، فإلى الوراء ينظر، وإما أن يلزم محله أو يتقهقر.

الشهرة

قال جون بايلي:

لا تقل لي الشهرة اسم فارغ
وهي آفاق الدنى قد طبقت
فصدى ذكر الذي نال العلا
يفرج النفس التي قد ضيقت
ولكم من ميت شهرته
في فؤاد الحدث نار أحرقت
فالتظت من حرها همته
وإلى نيل المعالي انطلقت

على أن المطامع لا نهاية لمجراها، ومهما بلغ الموفق سعيا في حياته، فإنه يموت وفي النفس أشياء.

ساعة المجد تساوي
ألف عام دون مجد
هكذا قالوا ولكن
أي قول دون رد

***

ولد في البيت يلفي
نفسه من خير ولد
ويرى الأيام تمضي
وهو في جد وكد
ويرى قصرًا معدًّا

وهو في القصر المعد
وينادي ليس قبلي
لا ولا بعدي ندي
***
وإذا الطفل عجوز
وله الأيام تبدي
عن مديح الناس سدت
أذناه كل سد
ماله الطائل باق
ويراه ليس يجدي
والأكاليل وشيب الر
أس ضد فوق ضد
قلبه مات وما الشهـ
رة إن ضاعت كند
فهو يستجدي جميلا
والمنايا ليس تجدي
ويقول: القبر يحوي
كل ما نلت بجدي
بعد كل الجد ألقى
في ترابي وجه جدي
ليس يبقى غير حبي
في الأولى يحيون بعدي
فسواه كل شيء
زائل من غير بد

والحب الذي يخلفه المائت، هو نتيجة الأعمال الخيرية النبيلة التي قام بها في حياته. أما مجرد الشهرة والمجد فباطلان، لأن الظالم يتمجد بظلمه،

والكافر قد يشتهر بكفره. وكم من غر بقصد الاستئثار بالشهرة الذاتية، يتفانى ويهلك نفسك، ولا يكون إلا ككاسر مزراب العين، الذي إنما فعل ذلك ليذكره أهل قريته، فذكروه، ولكن بماذا!

المقام والمسؤولية

علو المقام ترافقه مسؤوليات كبرى. فذلك الملك الذي بكلمة من كلماته منوطة حياة الألوف، ما أثقل تاجه على قلبه ورأسه! ومن ليس من علو المقام على شيء سوى الاسم، فتبا لحياته من حياة، كمثل ماري دي مديسي ملكة فرنسا، ووكيلة سلطنة فرنسا، وأم ملك فرنسا، وأم ملكة إسبانيا، وأم ملكة إنجلترا، وأميرة سفواي، تخلى عنها بنوها ونبذوها نبذ النواة حتى إنها ماتت في تولون، في حالة زرية، تقريبا من الجوع، بعدما قاست ما قاست في غضون عشر سنين، من شديد الاضطهاد والاحتقار.

العلاء الحقيقي

لتطمح نفوسنا إلى السؤدد والسلطة على النفس. فإن كل فرد ملك مطلق أو مقيد على أمور نفسه. والتقدم أو الترقي الحقيقي هو أن نعرف أكثر مما نعرف، وأن نصير في الغد أحسن منا اليوم، وأن نعمل فيما بعد أكثر مما نعمل الآن. وهذا التقدم لا نهاية لسبيله، ومع كل خطوة نخطوها تزيد طريقنا أمانًا وسلامة.

نعم، أعظم شرف للإنسان أن يقوم بواجباته.

ويقال إن القائد ولنكتن ما كان يذكر كلمة مجد أو فخر في كلامه، بل كان دائما يكرر لفظة «واجب! واجب!».

الصدق والأمانة

كن صادقًا وأمينًا في كل قول وعمل. ولقد أجاد ريختر بقوله إن أول خطيئة على الأرض -ولحسن الحظ الشيطان هو الذي ارتكبها- كانت بسبب شجرة المعرفة، وكانت كذبة.

الصدق أنفذ سياسة، وحبل الكذب قصير. الهرب من الصدق شهادة على الهارب بأنه يخشى الإنسان ولا يخاف الله.

وحسن بك أن تخجل من فعل المنكر، لكن إذا فعلته فلا تزد أن تنكر، بل الأوفق أن تعترف بمنكر تخلصا من منكرين.

الخلال التي تؤلف رجولية الرجل العظيم عديدة، ولكن هنالك خلة بدونها لم تعش حياة عظيمة، ولا أنجز عمل خطير، وهي الصدق. انظر إلى العظام، تجدهم صادقين نحو أنفسهم، ونحو غيرهم، بفضل شجاعتهم الأدبية.

ضدان

ضدان لما استجمعا حسنا

والضد يظهر حسنه الضد

ضدان قال الشاعر وردسورث يتحتم أن يجتمعا؛ الاستقلال والإذعان، الاعتماد على النفس والانقياد للغير.

تعلم أن تطيع وتمتثل الأوامر أولا، تستتب لك الطاعة والإمرة بالتالي. وكل من توصل إلى قيادة الجنود كان في بدء أمره جنديا أهم صفاته الطاعة واللين.

وقد مر بنا أن رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل، ولنورد الآن:

شاور سواك إذا نابتك نائبة

فإنما أنت في دار المشورات

فالعين تبصر منها ما دنا ونأى

ولا ترى نفسها إلا بمرآة

القوة والضعف

لقد ألفنا قرن شدة الميل بالقوة، وقلة الاندفاع بالضعف، مع أن هذه الآية أولى بالعكس. فالميل مع الهوى، هو الضعف بعينه، ومقاومته هي القوة بعينها.

والأميال والشهوات تضعف مع التقدم في العمر، أما قوة التجلد والارتداع فتقوى وتزيد شدة.

شيمة الحاكم

من أهم شيم الحاكم العدل، إذا توليت أمور الناس، فكن عادلا وتحر الحقيقة، واقفًا عليها وقوف ضنين ضاع في الترب خاتمه.

والشاعر الفارسي سعدي يخبرنا عن ملك شرقي ظالم، أمر بقطع رأس بري، فخاطبه هذا قائلا:

ألا احذر أيها الملك
ولا تهلك كمن هلكوا
دمائي الآن تهدرها
وروحي يقبض الملك
وللآباد نفسك يا
ظلوم تظل ترتبك

فالقوة تسكر، وقد تحمل على الطغي والبغي والتجبر. ولكن في كل حال، لا تفكر في ما تحب أن تفعل بل في ما يجب أن تفعل، تعش سعيدا.

العقاب والثواب

البر خير ما في البرية. نحن نحذر العقاب، ونرجو الثواب. ومن يعاقب ومن يثيب، وأين؟ نحن، وهنا. نظام عالمنا مرتب، بحيث إن فعل الخير يجلب الفرح، وفعل الشر يدعو الترح.

غفران الخطيئة لا ينفي المجازاة عليها، وهو ليس مستحيلا فقط، بل من البلاء أن يكون العكس. إذ لا مصيبة أكبر من التوفق إلى المعاصي والآثام والشرور، لأن تذكاراتها ترافق فاعلها كأرواح تعذبه طول العمر.

السلوك والتصرف

السلوك هو الحياة، والسعادة ليست بالأحوال، كما هي بالتصرف فيها. فاسهر على تصرفاتك، وحاسب نفسك يومًا فيومًا.

ولقد أقل ودل بوردمان بقوله الآتي:

ازرع فكرا واحصد فعلا، ازرع فعلا واحصد عادة، ازرع عادة واحصد خلقا، ازرع خلقًا واحصد قضاء وقدرًا.

والعادة خامس طبيعة، مثل سائر.

نحن ننمو قليلا كل يوم، ولكن أعلى اعوجاج أم على استقامة!

الناس صنفان

الجنس البشري صنفان، فاعلو الخير وفاعلو الإثم.

فمن كان من الثاني فهو المحول أصدقاءه إلى أعداء، وذاكرته إلى مصدر آلام، وهناء الحياة إلى شقاء، والناظر إلى العالم كسجن، وإلى الموت برعب. حين أن ابن الصنف الأول إذا كان لا يفعل أكثر من تنشيط بائس، وإبهاج كئيب، ولو لساعة من الزمان، فهو ملاك بصورة إنسان، يرى الدنيا وكل ما فيها بعين السعادة والهناء.

الخلو بالنفس

لو أن كل إنسان يخصص ساعة أو نصف ساعة من كل يوم، ليخلو بنفسه، ويتأمل مجريات يومه، ويزن نفسه فيراها راجحة أو ناقصة، فما عسى أن تكون الفائدة والنتيجة للإنسانية!

ومن يقول، ليس عندي وقت كان الأولى به أن يقول، ليس عندي إرادة...

الفصل السابع عشر

«سلام الحياة وسعادتها»

مجرد نجح المساعي والتوفق إلى الرغائب، لا يتفقان دائما مع السعادة الحقيقية وجودا. وكم من عريض الجاه ذي ثروة طائلة لا تراه إلا كئيبا، شاحب الوجه، قانطا من الحياة. فالطبيعة قد تمن على صفيها القوي بالمال والقدرة، وعلو المرتبة، وطول الحياة، لكنها تعجز عن إسعاده السعادة الحقيقية، لأن من لم تكن أزهار السعادة حية في نفسه، فلا بهجة الطبيعة ولا ملاذ العالم بأسرها، تجعله سعيدًا بالمعنى المراد. فالسعادة موقوفة بالأكثر على تسلط المرء على أفكاره وعواطفه لدرجة أن ينفي كل فكر مؤلم من رأسه، وكل عاطفة مرة من صدره وألا يتذكر إلا الجميل المسر من مواضيه.

فالسعادة من هذه الحيثية أشبه بفن جميل، لا بد دون النجاح فيه من المزاولة والممارسة. ومن يفتش عن المسرات تفتيشا، ويتطفل على أبوابها تطفلا، فهو ممن لا يلقون إلا القليل المبتذل منها. فليكن من رغبتنا في المسرات أننا نعيش كما ينبغي لنا أن نعيش، واثقين من أنها توافينا من تلقاء ذاتها.

البشر وحسن الطوية

تلق الناس بالبشر والطلاقة، ولا تسع وراء التسلي والتفكه سعيا، ولكن ابق مستعدا لاغتنام فرصهما كلما سنحت. والذوق الهزلي الذي يحسن المداعبات ومطارحة الحديث النكتي عطية خص بها الإنسان. فالعجماوات لم يبق من شك في أن بها مسكة من الفهم، ولكنها خالية من حب الابتهاج والجذل. والضحك مظهر سرور النفس. قال فيه شامفورت: أولى الأيام بالتأسف على فواته يوم لم تضحك فيه.

لا بد من اثنين لاحتدام الخصام والشقاق، فلا تكن أنت واحدا منهما، وإن لم تكن، فمن خصمك ومن يناوئك.

وبعض الناس لا يلقون إلا متململين متبرمين، ولو أسكنتهم جنة الخلود لأوجدوا لهم عللا للتذمر وأسبابا للشكوى. والبعض الآخر أينما التفتوا فالبركات والنعم تحفهم وهم بها متمتعون. وما أجمل ما قاله الشاعر موريس بهذا المعنى:

إن أرض الشقاء تغدو سماء
بهجة بل سعادة وهناء
لو قبرنا تحت التراب ارتيابا
يجلب الخوف للقلوب افتراء
ورجونا وظل حيًّا رجانا
في حشانا بأن ننال الرجاء
وعشقنا وزهرة العشق عاشت
لا تعاني من الخنا إذواء

والجذل دواء النفس. وكما أن حرارة الشمس تنبت الأزهار وتنضج الأثمار فهكذا الجذل -الشعور بحرية الحياة- ينمي فينا نبت الخير ويخرج أحسن ما في نفوسنا من مستودعات الطبيعة. زد على ذلك أن البشر والطلاقة واجب علينا إظهارهما، بقدر ما يطلب من الإنسان أن ييسر سعادة الناس ويزيد في هنائهم. ومن الخطأ الفادح والأقوال التي لا صحة فيها أن الجذل دليل الخفة وصغر العقل -ولتكف الإشارة إلى ذلك.

المصاعب لا تشقي

كثيرون يخلقون للكدح والنصب. وهذا القول لا ينطبق على ذوي العسر فقط، بل يتناول ذوي اليسر أيضًا. فكم من تاجر مسلوب الراحة، لكثرة ما يتراكم عليه من الأعمال التجارية، مما لا بد له حرصًا على ماله. أجل، لا بد لنا في هذه الدنيا أن تدهمنا المصائب، ولكن إذا عرضت لنا العقبات فعلينا أن نتجاوزها. فمن ثم يترتب علينا أن نزين جدران الدماغ بصورة التذكارات الجميلة، وأن نملأ قاعة الصدر بتماثيل الآمال الكبيرة. وإذا كنا لا نملك زمام

العقل ونحن نيام فتزعجنا الأحلام المخيفة ما تزعج، فلا أقل من استلامه في اليقظة. ومن عدم حتى هذه القوة فيا له من ضعيف.

والكل يحبون أن ينعموا في هذه الحياة، ولكن قليل من يعرف كيف، وبماذا!

التوهم

نتوهم غالبًا أن جروحنا قتالة قاضية، حين أنها ليست إلا خدوشًا قريبة الشفاء.

روى أحدهم أن طبيبًا استدعي لحادثة كان قد عرف قلة أهميتها وأدرك توهم مستدعيه، فأرسل في الحال يستحضر جفصينا، فقالوا له هل الجرح خطر لهذه الدرجة؟ فأجاب: لا سيدي، ولكن أرجو أن الرسول يتأخر قليلا في إرساليته حسب عادته، فلا يعود إلا وقد طاب الجرح.

والوقت يشفي جراح الجسد وكلوم النفس أيضا.

الكل يتوقون إلى نعيم السماء، ويرهبون شقاء الجحيم، والعجيب أنهم يفضلون مسرات هذه الحياة ولذاتها وشهواتها الزمنية على أمجاد تلك الدار الباقية، فكأنهم لا يعرفون أيا يحبون وأيا يرهبون.

أما الخوف من الموت فهو وهم باطل، والحقيقة الراهنة إنما هي حب الحياة. ومن أحب الحياة وعاش كما يجب أن يعيش فهو الحذر الحكيم، السعيد في حياته وبعد موته.

الطبيعة وبنو الإنسان

لسان حال الطبيعة
ذات الجمال البديعه
أني لديكم ألقي
ما تشتهون وديعه
تمتعوا بجميلي
لا تجحدوا لي صنيعه

فالزهر مني لعين
ترنوا إلي مطيعه
وكل لحن رخيم
لكل أذن سميعه
ومن يراع حقوقي
حينا ويعص الشريعه
ير التلطف مني
ومنه كل فظيعه

***

فإنني أم حسن
ولست أما مريعه
ما رائع غير حسني
وكيف حسن الطبيعه؟

هذا هو لسان حال الطبيعة لمن يعرف نواميسها، ويراعي شرائعها ولا يحيد عن سننها.

السعادة

حكاية فارسية:

ملك ضاقت البرية فيه
بعد ضيق في الصدر أحرج نفسه
فاستشار الكبار من وزراه
فأشاروا بما يطابق حدسه
إذ أشاروا بلبسه لقميص
لسعيد عليه يخلع لبسه

***

فأذاع الجنود في كل صوب

ليوافوا بما يروق كأسه
فقصور الحكام جاءوا وجاءوا
كل مثر والكل صعد رأسه
***
وأخيرا عادوا وكل كئيب
للمليك العاتي ليظهر يأسه
صادفوا في الطريق شخصًا حقيرًا
وأتاه من قد توسم أنسه
ورأى أنه سعيد سعيد
يشكر الحظ لا يلوم نحسه
أخذوه إلى المليك ولكن
.....لا قميص تكسوه

أنواع الحاجات

رغائب الإنسان ومشتهياته، على حد قول شيشرون، نقلا عن فلاسفة زمانه، على ثلاثة أنواع؛ طبيعية ضرورية، طبيعية غير ضرورية، غير طبيعية وغير ضرورية. فالأولى تقدمها الطبيعة الجوادة. والثانية تتيسر وتتوفر. أما الثالثة فما أكثرها! بل كم يكثرها الإنسان، ويتعلق بها، ويلح في إدراكها، ولا يعرف في اتباعها اعتدالا.

فمحبة الذات والانهماك بشهوات النفس، ما هذان، بل نكران الذات وكبح جماح الأهواء، مجلبة للسعادة.

ما نطلب وما يجب أن نطلب

نطلب أمورا كثيرة. نرغب في أن يكون لنا صوت انتخابي، نطلب الحرية، نطلب المسرات، نطلب المال.

فليت شعري! من منا يشعر بافتقاره إلى السلام الداخلي؟

وكيف يحصل عليه؟ هكذا... اجعل رأسك وقلبك عشي أفكار وعواطف سارة وشريفة. قرأنا في صغرنا عن غرائب الجن، ولا يزال يغرب عن أذهاننا أننا بمخيلاتنا يمكننا أن نبني قصورًا شاهقة، وننشئ حدائق غناء. فالمخيلة المتألقة بخيالاتها الباهرة الجميلة، والحافظة الحية بتذكاراتها الحلوة، والسيرة المملوءة أعمالًا حميدة، والأقوال الصادقة، وأمثال هذه البركات، مما لا يؤثر به هم، ولا يشوبه ألم، ولا يسلبه فقر.

هذا هو السلام الداخلي، هذه هي السعادة.

الموت

ولماذا نخاف الموت وهو الشر الوحيد الذي لا نشعر بوجوده. ما دمنا نحن موجودين فهو معدوم، وإذا وجد فنحن معدومون.

الفصل الثامن عشر

«الدين»

ترددت طويلًا في تعريب هذا الفصل، وقد قرأته مرارًا. وبعد أن كدت أنجز تعريبه خطر لي أن أثبت هذه الأبيات المستمدة روحها من عباراته وشواهده الكتابية.

الدين لله ليس الدين للبشر
الدين بالفعل ليس الدين بالنظر

***

ولا غرابة أن تكثر مذاهبنا
إذا ارتحلنا وكان الكل في سفر
وما إذا متنا فيها بدائمة
لكنها تنتهي مع آخر العمر

***

الله في كونه بالقلب نعرفه
لا بالسماع ولا باللمس والبصر
أفهامنا أبدا ليست لتدركه
مهما تطل باعنا نفضل أولي قصر

***

نحيا على كرة من كون قدرته
بجسم ترب بعيد الموت مندثر
وإن نظرنا إلى الأفلاك دائرة
فكلها عبر تبدو لمعتبر
فانظر إليها وقل سبحان عزته
رب القضاء ورب الحظ والقدر

***

وفي ضميرك صوت أمره حكم
ونهيه حكم من آيه الغرر
ما الدين بالكتب واللاهوت أفضله
بل بالشعور بفرض بالنجاز حري
وليس شغلًا له وقت نمارسه
فيه وفي غيره خلوًا من الخطر
بل إنه عوننا في طول رحلتنا
وفي معونته ننجو من الخطر
وكم تهب رياح المكر عاصفة
وتصطلي نار حقد الناس من شرر
وكم تلم وتبلونا مصائبنا
وكم نصادف سعدا غير منتظر
وكم تهون لنا الآثام طاغية
بكل شر حديث العهد مبتكر
وكم لنا في سبيل الخير من حجر
وواجب فعله مع عثرة الحجر
فالدين قوتنا والدين حكمتنا
والدين ملجأنا من كل تي العبر

***

الله يخلقنا خلقا ويتركنا
نقضي الحياة ويردينا على غرر
ولست أدري أفي ذا اليوم دعوتنا
أم بعد حين وربي بالجميع دري

***

ورسله شرحوا متن الحياة لنا
وعلمونا بوحي منه منحدر

وخير ما نطق الرسل الكرام به
أمر الأنام بحب غير مزدخر
ومن يحب حبيبا كيف يظلمه
أم كيف يصبح فيه غير ذي فكر
ومن يحب عدوا كيف يقتله
ويغضب الله بالتشنيع بالصور
والحب أفعل دين قد يدان به
تأثيره ظاهر في الذئب والنمر
وكم نرى آدميا لا حنان به
يطغى ويبغي بقلب غير منفطر

***

والله يكرم ذا حب ومرحمة
ذا قلب حلم على الإخوان منكسر

***

والله يسمع من يدعوه عن ثقة
وهو الصبور يجازي كل مصطبر
يرى العوالم بالإنسان مفتخرًا
وليس في غير ذي عقل بمفتخر
الطير يرزقه والوحش يشبعه
والعشب يرويه من قطر ومنهمر
فليتق الله ذا الخلق المعزز ول
يعبده بالقول والأعمال والفكر

***

والمرء يولد طفلًا قد يموت على
ذاك السرير وقد يحيا إلى الكبر

فليفهمن الذي يحيا بلا ريب
معنى الحياة وحب الله والبشر